منهج قراءة التراث الإسلامي

بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين



الأستاذ الدكتور

أبو جميل الحسن العلمي

أستاذ الحديث والفكر الإسلامي جامعة ابن طفيل - المغرب

دار الكلمة للنشر والتوزيع


منهج قراءة
التراث الإسلامي
بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م
بطاقة الفهرسة

العلمي ، أبو جميل الحسن
منهج قراءة التراث الإسلامي بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين
أ.د/ أبو جميل الحسن العلمي . ط١. المنصورة :
دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٢م
٣٢٨ص ، ٢٤سم
الترقيم الدولي : ٣ ـ ٤٠٩ ـ ٣١١ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
رقـــم الإيداع : ٢٦٣٨ / ٢٠١٢م

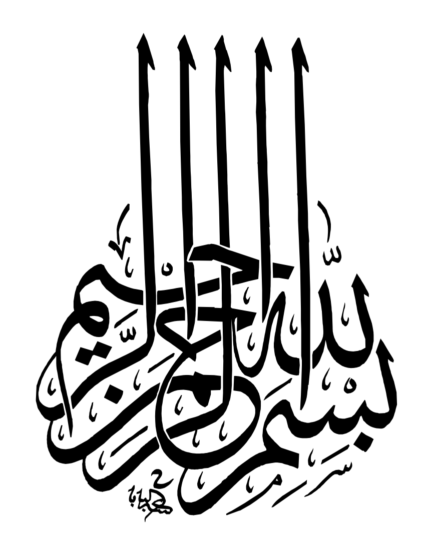
دار الكلمة للنشر والتوزيع

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر ـ القاهرة ـ المنصورة
القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥ ـ المنصورة . ص.ب. : ١٦٧
e_mail:mmaggour@hotmail.com

منهج قراءة
التراث الإسلامي
بين تأصيل العالمين وانتحال المبطلين

الأستاذ الدكتور
أبو جميل الحسن العلمي
أستاذ الحديث والفكر الإسلامي جامعة ابن طفيل - المغرب

دار الكلمة
للنشر والتوزيع



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في الأولين والآخرين ، وعلى من اتبع هداه واستن بسنته إلى يوم الدين ، ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وأنطقنا بالحكمة ، واجعلنا من الراشدين فضلا منك ونعمة . وأخرجنا اللهم من ظلمات الوهم ، وأكرمنا بنور الفهم ، وعلمنا ما لا نعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم .

ونعوذ بك اللهم من شرة اللسن ، وفضول الهذر ، ونستوهب منك توفيقا قائدا إلى الرشد ، وقلبا متقلبا مع الحق ، وإصابة ذائذة عن الزيغ ، وبصيرة ندرك بها عرفان القدر ، وأن تسعدنا بالهداية إلى الدراية ، وتعضدنا بالإعانة على الإبانة وتعصمنا من الغواية في الرواية ، وتصرفنا عن السفاهة في الفكاهة ، حتى لا نرد مورد مأثمة ، ولا نرتهن بتبعة ولا معتبة ، ولانلجأ إلى معذرة عن بادرة [١] .

أما بعد فهذه رسالة في «منهج قراءة التراث الإسلامي» أقدمها إلى حملة العلم ، المستشرفين لقراءة علمية للفكر والتراث الإسلامي ، المتطلعين إلى منهج أصيل في قراءة الآثار والأفكار ، والاستفادة من هذا التراث الذي راكم الناس فيه الغث والسمين ، وخَبَّ المتزيدون فيه وأوضعوا ، فشغلوا هذه الأمة بالفضول والحشو عن الاشتغال بما ينفع المسلمين من أسباب الرقي العلمي والحضاري .

وقد تصدى أعلام الأمة من حملة ألوية النقد لنخله وغربلته والدفاع عنه كما قال النبي ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » [٢] .

---

(١) عن مقدمة المقامات الأدبية لأبي محمد الحريري ٥١٠ هـ : ٩ بتصرف

(٢) أخرجه الدار قطني في السنن، والطبراني في مسند الشاميين:١/ ٣٤٤ وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ١٨٠، وفيه بقية بن الوليد مدلس، قال القاسمي وتعدد طرقه يقضي بحسنه كما جزم به=

و تندرج أهمية هذا الموضوع ضمن مشروع «تجديد الفكر الإسلامي» لما يهدف إليه من الاستفادة من النقط المشرقة في تراثنا الفكري والحضاري ، وترك الاشتغال بما ضيع على الأمة زمنا في الجدل العقيم ، والتعلق بالفكر الوافد دون فائدة .

فإن الأمة اليوم في زمن أحوج ما تكون فيه إلى ترك الحشو والفضول الذي هو من حسن إسلام المرء ، وتصفية المشارب ، والاشتغال بما يفيد من عصارة هذا الميراث الفكري والحضاري ، وامتلاك ناصية العلم ، والتحكم في المعارف بمناهج النقد والأخذ والرد ، لا بالتقليد والاجترار ، وفقه سنن الله في تغير المجتمعات وتعاقب الحضارات ، والنظر فيما ينفع الأمة نظر تطوير وإبداع ، لا نظر ترف وامتناع ، بالتغني بالأمجاد والوقوف على الأطلال .

ذلك أن إخلاصنا لأسلافنا لا يكون بالمحافظة على تراثهم كأنه رماد ميت بغثه وسمينه ، أو جثث محنطة بعيدا عما ينفع الناس في واقعهم اليوم ، لكن بغربلته وإحالته فكرا حيا متوقدا ، ومشعل نور يبعث الحياة في حاضرنا ومستقبلنا ، بما فيه من جواهر كريمة ، وكنوز دفينة ، ينبني عليها التقدم العلمي الحضاري لأمتنا .

ولطالما شغلتني فكرة هذا الموضوع بعد طول بحث في مجال نقد التاريخ الإسلامي ، لما اطلعت عليه من البلايا والرزايا التي أصيب بها تراث المسلمين من لدن القاسطين ، وأهل الأهواء من الفلاسفة والمتكلمين ، وهو تراث تليد ، يمثل جانبا مهما من المعرفة الإسلامية ، بُنيت عليه مواقف وأفكار ومذاهب عبر التاريخ ، صحح العلماء المحدثون والمفكرون جوانب منها ، وما بقي وخفي أعظم[1] .

= العلائي» : قواعد التحديث ٤٧ ، وذكره ابن القيم في مفتاح السعادة وقواه لتعدد طرقه ١/ ١٦٣-١٦٤ . واستظهر ابن الوزير اليماني صحته وحسنه لكثرة طرقه، ونقل ابن عبد البر تصحيح الإمام أحمد له، وترجيح العقيلي لإسناده 'الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم :١/ ٢١-٢٣)

(١) وقد فصلت ذلك في «إعادة كتابة التاريخ الإسلامي في ضوء منهج الجرح والتعديل»، وممن كتب في هذا الموضوع الشيخ أحمد شاكر ~ ، ومحب الدين الخطيب في تعليقاته على العواصم من=

وقد تحصل عندي أنه لم يكن أضر على المسلمين من مطلق القبول والتسليم بكل ما قيل وأثر في تراث الماضين ، وتعطيل نعمة النظر ، والغفلة عن منهج الأخذ والرد في العلوم ، إذ تقرر أن كل الناس يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ .

ومن بواعث تصنيف هذه الرسالة أنه جرى في بعض أندية العلم والأدب حديث عن قواعد منهجية تشد الفكر ، وتسدد النظر وتصونه من الاسترسال في الخطأ والزلل في التلقي والاستدلال ، إثر محاضرة مع بعض الفضلاء ، من بقية أهل العلم في هذا الزمان ، فأشار بعضهم أن لو أُلف فيها مصنف جامع لبعض قواعد المعرفة ومنهج النظر في التراث لكان للناظرين إماما ، وللسادرين في ميادين الفكر زماما .

فاستعظمت هذا الأمر وأحجمت عنه زمنا إحجام المرتاب ، رغم تحرك باعث الهمة للكتابة والتصنيف فيه ، لأنه علم صلف ، كان للسلف فيه إشارات وعبارات في أصول البحث والمناظرة ، وتفرقت قواعده عند أهل العلوم والفنون ، وقل المعانون له من غير نقاد الحديث والرجال وعلماء الأصول .

ثم منَّ الله بعد حين بولوج هذا الباب ، واستخلاص ما في قواعده من اللب واللباب ، وهو علم ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، وهزلت صناعته في سوق العلوم والمعارف ، لاسيما وأن النظر في الفكر الإسلامي اليوم أصبح ميدانا مشرع الأبواب يلزُّ فيه كل دعي ، ويلجه الصغير والكبير ، وقل أن يلتفت المستعجلون فيه إلى قواعد العلم وضوابط المعرفة ، لكونها مسالك وعرة تفرقت في شعاب المعارف والعلوم ، تُضني الأفكار ، وتشقى في مداركها العقول والأنظار ، وتكبح جماح المجترئين بلجام الأدلة ، وتحقيق صحة الدعاوى والأخبار ، مما تفنى دونه الأيام والأعمار .

= القواصم لابن العربي، والشيخ محمد عابدين أبو اليسر في كتابه «أغاليط المؤرخين» والدكتور أكرم ضياء العمري في «صحيح السيرة النبوية»، و الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج» .

وما نحن فيه بإزاء من مضى من صيارفة المعرفة ونقاد الآثار إلا «كبقل عند أصول نخل طوال» ، إذ هو مقام يحتاج إلى انتخاب معادن العلوم وأباريزها ، وينأى عن حشد شذورها وفضولها ، مما تراكم من أخطاء حبلت بها بطون كتب التراث ، وما تسرب من جهة أهل الغفلة الناقلين عن كل من هب ودب ، كحاطب ليل ، وجارف سيل .

ومن ثم فإن الزلل في هذا المقام يكون من جهة إكثار القيل والقال ، والتسليم بكل ما أثر في تراث الماضين من رأي أو مقال ، دون تمييز بين غث وسمين ، أو معرفة شمال من يمين ، وقد قل أن سلم مكثار ، أو أُقيل له عِثار .

فإن خلع رسن العلم والتأصيل ، وإلقاء الكلام على العواهن بغير دليل أهون شيء عند المجترئين ، وهو سبب ما ظهر اليوم بين المعاصرين من الغثاء الذي ينشر باسم الفكر الإسلامي ، مما صنعه أصحاب ثقافات بالية مغشوشة .

ومن المعلوم أن كل الصنائع والعلوم لها أبواب وعليها محتسبون ، إلا مجال الفكر والتراث الإسلامي فقد أصبح مع هؤلاء مهيعا واسعا ومرعى فسيحا مشرع الأبواب لكل من ظهر له رأي يهذي به في المنام ، تراه يتسور هذا الحمى ، ويتولج مجال التنظير ، ليسود أعمدة الصحف بكلام سخيف ، ويملأ دنيا الإعلام شغبا وضجيجا ، دون أناة نظر وتأصيل ، أو أثارة من دليل ، وقد تسربت هذه الجرأة على التراث إلى ميادين البحث العلمي ، حيث ابتلينا بمن أصبح يهذي بذلك على كراسي الجامعات باسم حرية الفكر والنظر والاجتهاد .

ولا يخفى أن صناعة التأصيل ونقد المعارف مقام يحار فيه الفهم ، ويفرط فيه الوهم ، ويسبر به غور العقل ، وينكشف به معدن الإنسان في العلم والفضل ، ولا يزال المرء في فسحة من أمره ما لم يؤلف كتابا أو ينظم شعرا ، أو ينتقد رأيا ، ومن ألف فقد استهدف ، لأن رضا الناس جميعا غاية لا تدرك .

لكن من جرد النية لخدمة العلم بما يراه صوابا لا ينبغي أن يعبأ بما عبا له ، مما قيل

أو يقال ، فإنما تدرك غاية الأنظار بعد استكمال العُدة بخوض الغمار ، ونحت الأفكار في الميدان ، كما يمعن في ذلك أهل الباطل بقوة وجلد لا يترددون ولا يلتفتون إلى الأغيار ، في عالم لم يعد فيه موطئ قدم للعاجزين ، ولا أثر يُسمع فيه للنوكى والمقصرين ، كما قال أمير الشعراء شوقي ~ :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا   إن الحيـــاة عقيـــدة وجـــهاد

أما من تنكب الصراحة فيما يراه صوابا ، وتحَّسب آراء الخلق ، خشية حصائد ألسنة بني الإنسان ، فقد وجب أن يكون حِلس بيته ، وينام في مناخ البطالة قانعا بظنه وحدسه ، فينفسح المجال حينئذ للعابثين ، وترتفع أصوات المبطلين ، ويصبح المحجم عن النزال بعد استشراء الأهواء والفتن كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه .

وقد آثرت الاقتصار في هذه الرسالة على الجوانب المنهجية في تأصيل المعرفة الإسلامية ونقد التراث ، لما للمنهج من خطر عظيم في إدراك الحق ، أو الانزلاق نحو الباطل ، إذ أن الاشتغال بنخل الفروع المتشابهة لا ينضبط بغير أصول ومنهج يرجع إليه ، لأنه أمر تفنى دونه الأعمار ، وتنقضي في غمراته الأزمان ولا ينتهي .

ومن ثم فإن قضية المنهج هي من «الفقه الأكبر» الذي لا يستقيم العقل المسلم ولا يرشد إلا به ، ومن أجل ما ينبغي أن يُعنى به الناظرون في الفكر الإسلامي قبل التفكير والتنظير ، إذ سلامة المنهج سبيل الرشاد في فهم التراث ، وتمييز الحق من الباطل ، ومناط سداد الفكر والسلوك ، مما لا يرجى بغيره للأمة سيادة ولا ريادة .

كما قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢] .

وأمتنا اليوم في أمس الحاجة إلى تشخيص علل الفكر وأدواء المعرفة ، لإدراك الآفات التي حالت بيننا وبين مقام الريادة ، كما كان أسلافنا من قبل ، وجعلتنا ذيلا وذليلا لغيرنا ، متعلقين بها أخر الأمة زمنا ، وأغرقها في الأهواء والخلافات،التي لم

تجن منها خيرا يُذكر .

ولا يتم ذلك إلا بفقه معالم المنهج في تأصيل المعرفة وصيانة التراث الإسلامي من تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وكشف زيف مناهج القاسطين وأثرها على الفكر والتراث ، تنزيها لفكر الأمة من الحشو والفضول .

وهو سبيل حسن فهم الدين ، واستيعاب النافع من التراث ، واستخلاص الفكر الإسلامي الأصيل ، وتصفيته من ترهات الفلاسفة والمتكلمين ، وتحريف الغالين من دعاة الحداثة الذين جعلوا القرآن والسنة عضين ، وبعثوا في الأمة أفكارا دخيلة ، علقت بعقولهم من أوهام وأساطير الأمم ، ينفرون بها الناس من الدين ، حتى صار في مجتمعات الحداثة رسوم في كتب التراث ، لا أثر له في واقع الحياة .

وقد يجد القارئ في مطاوي هذه الرسالة عبارات يراها نابية عن سمعه ، ويحسبها جارحة بحسب طبعه ، فليعلم أن صيانة حمى الحق لا يُنال بالمصانعة والمداهنة . فلئن كان إحقاق الصواب لا ينسينا حسن الخطاب ، فإن التلطف في دحض الباطل لا يثنينا عن رفع النقاب ، وكشف الألقاب ، نكاية بالقاسطين ، وشفاء للمُقسطين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات ، تكون بحسب الحاجات ، كالسلاح في المحاربات ، فإذا كان عدو المسلمين في تحصنهم وتسلحهم على غير الصفة التي كان عليها فارس والروم ، كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة ، التي مبناها على تحري ما هو أطوع ، وللعبد أنفع» [(١)] .

فدع عنك كلمات المداهنين الذين يرون من الحكمة مغازلة المبطلين ، ورمي باطلهم بصوف منفوش ، لا دمغه بحجر منقوش ، تأليفا للقلوب ! وحسب المرء تحري العدل والإنصاف مع المخالفين حمدا وذما ، بنقد الأفكار دون إزراء بذوات الرجال ، والحرص على حفظ أدب الخلاف مع العلماء من أولي السابقة والغناء ، وهو

---

(١) فتاوى ابن تيمية :٤ / ١٠٧ .

أدب لا يحفظ مع السفهاء المجترئين على الملة ، والمجاهرين بنقض عرى الإسلام .

ومن ثم فإن مصنفا كهذا إن سر قوما من أهل التجرد ، ممن لا يضرهم بيان خطأ مؤالف ، أو ذكر صواب مخالف ، فإنه يغيض آخرين من أهل التعصب للطوائف والرجال ، ممن كثر سوادهم في هذا الزمان .

ولست بحمد الله ممن يطلب مرضاة الخلائق بالمحاباة والمداراة فيما أراه صوابا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وقال الشريف المرتضي :

إذا الله لم يعذرك فيما ترومه فما الناس إلا عاذل ومؤنب

والمرء إن حظي بثناء محب متغاضي ، أو إغماض فطن متغابي ، فإنه لا يسلم من قدح غمر جاهل ، أو نكد خصم متجاهل ، يضع الكلام في غير مواضعه ، ويحمله على غير محامله ، ثم يحشر نفسه في مضايق تكفل الله بها من أمر النيات والسرائر ، وينتصب كاهنا يكشف عما في الضمائر ، ويقيم جلبة وصياحا لنصرة باطل أوفهم كاسد جاء به مُؤالف ، أو رد حق قال به مُخالف ، حتى إنه ليُرى حملة العلم بين هؤلاء ، أضيع من الأيتام في مأدُبة اللئام ، كما حصل للزمخشري مع أهل زمانه حيث قال :

وأخرني دهري وقدم معشرا على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني أنا الميم والأيام أفلح أعلم

ذلك لأن العلم أصبح فُضلة ونافلة في حياتنا ، والقراءة أضحت وقت فراغ في أيامنا ، و آل أفاضلنا أنصافَ مثقفين ، وأحيانا أميين ، أو أشباه الأميين ، وهي حال لا يُرجى معها خير لهذه الأمة حتى يستقيم ذلك العوج فينا ، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا يقوم لله بالحجة في الأرض سوى أجيال من العلماء الراسخين ، في شعب العلوم ، بمنهج أصيل ، لأنه لا يقود الأعمى البصير .

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم لقد ضل من كانت العميان

وإنه لا يليق بعاقل أن يدع صفاء المنهج الإسلامي الأصيل وظلاله الوارفة ، ثم

يتعلق بأهواء لم تزد أصحابها إلا اختلافا وبعدا عن الجادة ، ويرضى لنفسه مراتع القاسطين ليقتات منها ، مع إدراكه ما أورثت الأمة من علل وأسقام ، لكن الناس سراع إلى أهواء الدنيا .

فلو تخلص المسلمون من نفايات التراث ، وما حملته من نحل وأهواء محدثات أنشبت بينهم خلافا ونزاعا ، وسلموا لما جاء عن الله ورسوله ﷺ لسلمت أحوالهم ، واستعانوا على عدوهم بوحدة المنهج والكلمة ، بدل أن يقتتلوا تعصبا لآراء المبطلين ، ممن لم تجن الأمة من وراء أهوائهم سوى الشوك وخرط القتاد .

وما أحوج أمتنا اليوم إلى أذهان مرتبة ، وعقول مبصرة ، حتى نغالب أمم الأرض ، في وقت اتجه الأعداء فيه إلى استثمار العقول والأدمغة ، ونامت الأمة عن ذلك . ومعلوم أن ترتيب الذهن لا يكون بزحمة الآراء ، أو تجميع حشود النظريات والأفكار الملتقطة من هنا وهناك ، ورقاعات ما تقذف به الصحف والجرائد كل يوم . بل بفقه سنن الله الكون ، وإدمان النظر في محكمات الشرع ومتطلبات العصر ، مما ينفع الأمة في صناعة الحاضر والمستقبل .

والله تعالى نسأل أن يبصر المسلمين بما فيه صلاحهم وهداهم ، وأن ينفع بهذا المصنف كل مطلع عليه ، وهو جهد المقل ، لا أدعي له التمام والكمال ، فما كان منه صوابا فمن الله وما كان خطأ فمني ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

أبو جميل الحسن العلمي

آزرو- المغرب ١٤٣١هـ

أزمة فكر ومنهاج لا أزمة صدق وإخلاص

إن من تأمل ما أصاب طوائف من المسلمين عبر تاريخ هذه الأمة من خلل في الفكر ، أو انحراف في السلوك ، أو تخلف في قيم الحضارة ، يجد أن أكثره من عند أنفسهم ، بسبب فساد المناهج والمشارب ، واستشراء العجز والكسل ، والتقاعس عن تحقيق أسباب الاستقامة والرقي ، وهي سنة الله في خلقه ، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج .

فهذه الأمة أتيت من داخلها ، بانحراف طوائف القاسطين فيها عن نهج سنن أهل العلم وحماة الفكر ، والاستمساك بسنن النصر والعزة . وهي سنن لا ترحم أحدا ، فإن نقطة الانطلاق تحدد مرام الوصول ، وإذا اختل المنهاج آل الناس إلى عوج وتيه وضلال ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك:٢٢] .

فقد انحرف طوائف من هذه الأمة عن الجادة ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، وصار أخلافهم من المقلدين يجترون الغث من هذا التراث في عماية وضلالة على غير منهاج وطريق .

فآلت الأهواء الحادثة عندهم مسلمات ، والثوابت بإزاء أهوائهم ظنونا متغيرات ، والشرائع جامدة معطلة ، والفروع والكليات مضيعة . أكثرهم فرطوا في الأصول ، واقتتلوا على الفروع ، وعطلوا نعمة العقل والنظر ، حتى صار الجهل علما ، والهوى سياسة ، والصلف والجرأة على الدين حرية ، والكفر وجهة نظر ، والسفه خلافا في الرأي ينبغي أن يُعتبر !!

ثم تراهم بعد ذلك يعودون باللآئمة على غيرهم ، ويردون البلاء إلى مكر اليهود والنصارى ، وقد بلغوا من أنفسهم ما لم يبلغه أعداؤهم منهم .

كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [آل عمران:١٦٥] .

وقد تظافرت الأدلة على أن أزمة المسلمين اليوم أزمة فقه ومنهاج ، قبل أن تكون أزمة صدق وإخلاص ، فإن من ضل من طوائف أهل البدع والأهواء لم يعدم أكثرهم صدقا ولا إخلاصا ، ولم يفتهم التعلق بحب الخير لهذه الأمة ، لكن فاتهم طريق العلم ، حيث ضرب بينهم وبين سنن أهل العلم بأسداد ، فكانوا أبعد عن السداد .

والمسلم مرآة عقله ، وحاله انعكاس لمنهجه وفكره ، فالعقل الإسلامي من نفسه أُتي ، وعلى نفسها جنت براقش ، كما قال الشاعر :

دواؤك فيك وما تُبصر	وداؤك منك وما تشعر
وتحسب أنك جِرم صغير	وفيك انطوى العالم الأكبر
فأنت الكتاب المبين الذي	بأحرفه يظهر المُضمر [(١)]

فمن الواجب على حملة العلم ودارسي التراث الإسلامي إحكام قواعد المعرفة ومنهج نخل التراث بغثة وسمينه ، وخميره وعفينه ، باستلهام المنهج الإسلامي في نقد النظريات والأفكار ، الذي ينبني على أصول العقيدة ، وقواعد النقد عند المحدثين ، وأصول النظر والاستدلال عند الأصوليين والفقهاء ، فهي مناط قواعد المعرفة الإسلامية ، وبها يتم تأصيل الفكر الإسلامي الصحيح .

ومن سداد المنهاج في نقد التراث وتأصيل المعرفة مراجعة فهم السلف ومن سار على نهجهم من العلماء في غربلة العلوم وأفكار الطوائف والرجال ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأغزرها علما ، وأقلها حشوا وتكلفا ، وقد كانوا أقرب الناس إلى

---

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي : ١/ ٢١٢.

معرفة مكامن القوة والخلل في فكر الأمة ، وعلموا من ذلك فوق ماعلمنا ، فما كان منه صالحا موافقا للأصول أخذناه ، وما كان من ذلك شرا وبلاء مناقضا لها تركناه .

وليس المنهاج مجموعة نصوص يقرؤها المرء ويطير بها كل مطار دون فقه أو دراية ، بل «المنهاج قواعد علمية مستفادة من ثمرات العلم بالنصوص ، وتفاعل العقل مع الوحي ، وامتزاج النظر بالأثر» .

وهذه القواعد دل عليها استقراء صنيع العلماء في النظر والاجتهاد في تأصيل المعارف والعلوم ، واستثمار النظريات والأفكار ، والكشف عن سنن الله الشرعية والكونية . إذ لا بصر لهذه العقول إلا بنور القرآن والسنة ، ومزج ذلك بالنظر في سنن الله الكونية والشرعية في الآفاق والأنفس والمجتمعات .

*****

الفصل الأول

مدخل إلى دراسة التراث الإسلامي

إن دراسة التراث الإسلامي تعرضت لتحريف وتزييف كثير خلال مراحل التاريخ الإسلامي،وقد حصل ذلك بسبب اختلال مناهج النظر والتلقي والنقد والتمحيص في قراءة التراث ، وتسرب الأهواء وفساد مشارب أهل الأهواء الذين انتحلوا الغث من المعارف وجعلوها فكرا ودينا للأمة ، وكان من هؤلاء كثير من المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة والأدباء والقصاص والمؤرخين .

وقد نبه إلى ذلك المؤرخ الناقد شمس الدين السخاوي حيث قال : «وبالجملة فالمؤرخون كغيرهم من سائر المصنفين ، في كلامهم الخمير والعفين ، والسعيد من عدت غلطاته و اشتدت سقطاته ، فكل إنسان سوى ما استدركوا يؤخذ من كلامه ويترك ، وهي الدنيا لا يكمل فيها شيء ، ولا يخلو مصنف من نشر و طي . . . نعم قد ظهر الكثير من الخلل ، وانتشر من المناكير ما اشتمل على أقبح العلل ، حيث انتدب للتصنيف في هذا الفن الشريف من اشتمل على التحريف والتصحيف لعدم إتقانهم شروط الرواية والنقل وائتمانهم من لا يوصف بأمانة ولا عقل ، بل صاروا يكتبون السمين مع الهزيل ، والمكين مع المزلزل العليل» (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء . قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال ، وبان لي أن كثيرا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة على كل دين ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضا عن الكتاب والسنة مقبلا على مقولاتهم إلا وقد تزندق...فلما رأيت ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم ، وقطع حججهم

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، لمن ذم التاريخ : ١١٢ .

وأضاليلهم ، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ، وزيف دلائلهم ، ذبا عن الملة الحنيفية ، والسنة الصحيحة الجلية » [١] .

لذلك فإن تشخيص العلل ، وبيان مكامن الخلل ، والنظر في قواعد منهج دراسة التراث هي أولي الأولويات في تأصيل المعرفة الإسلامية ، وتصحيح الأصول والغايات قبل أي عمل آخر في مجال البناء الفكري والحضاري في الأمة .

أصناف الناظرين في التراث الإسلامي :

تأملت أحوال الناظرين في المعرفة الإسلامية فكرا ومنهاجا ، فإذا هم طائفتان : أهل نصوص وأثر ، وأصحاب رأي ونظر ، وضمن كل طائفة ألوان ومذاهب ، تباينت مواقفهم من التراث الإسلامي بين غلاة بالغوا في المدح والإطراء ، وعاشوا على التغني بالأطلال والأمجاد ، وجفاة من دعاة الحداثة تنكروا لتراث الأمة وأصالتها ، وأمعنوا في رفض كل تليد ، وأزروا بفكر السلف ، وفتنوا العوام ممن لا يميزون ولايعرفون ما يقبلون أوينكرون .

وبين هؤلاء صفوة من النمط الأوسط من العلماء النظار والمفكرين الأحرار ممن صفا لهم المشرب واستقام لهم المنهج ، هم حراس المعرفة الإسلامية وحماة النظر والأثر في هذه الأمة .

١ ـ التراثيون والتغني بالأمجاد :

التراثيون جيل من المقلدة وقفوا عند الأطلال والرسوم، ، وأصيبوا بداء الغلو في تمجيد التراث ، لأنهم عجزوا عن النقد والإبداع وقنعوا بالتقليد ، وسلموا الزمام ، ورضوا باجترار ما انتفخت به كتب الماضين ، وقالوا هل من مزيد ، يعيشون على المدح والإطراء والتغني بالأمجاد ، لايعرفون سوى التسليم بما قيل ، مما تقذف به أرحام الكتب ، فإنما هي زبر تدفع ، وعقول تبلع .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٥.

فهؤلاء قد غلب عليهم تقديس الماضي ، وإكبار صنائع المتقدمين ، فسلموا بالعجز عن بلوغ مداركهم ، وعطلوا في الأمة حركة الإبداع والنظر والاجتهاد ، ولم يروا للمتأخرين فضل علم ، أو مُكنة تجديد واجتهاد ، وقضوا بأنه ما ترك الأول للآخر شيئا .

يقول د . زكي نجيب محمود : «سلطان الماضي على الحاضر هو بمثابة السيطرة يفرضها الموتى على الأحياء ، وقد يبدو غريبا أن يكون للموتى مثل هذه السيطرة ، مع أنه لم يبق لنا منهم إلا صفحات مرقومة صامتة لا تمسك بيدها صارما تجلوه في وجوهنا» [١] .

وقد مثل هذا المنحى خلائق من الجامدين من مقلدة المذاهب وأصحاب المتون والحواشي والطرر ، وقفوا عند ألغازها وقوف ضنين ضاع خاتمه في التراب ، يشرحون غوامضها ويفكون رموزها ، ويضرعون إلى الله أياما في فهمها ، وكأنها وحي منزل .

قال صالح الفلاني عن أهل زمانه : «جعلوا دينهم الحمية والعصبية ، وانحصروا على طوائف . فطائفة منهم : خليليون ادعوا أن جميع ما أنزل على محمد ﷺ محصور في مختصر خليل!! فأنزلوه منزلة كتاب الله العزيز الجليل» [٢] .

وقد قدم هؤلاء صورة سيئة ونماذج قاتمة في تاريخ العلم و الفكر في الأمة ، و ابتلي الغرب الإسلامي بالنصيب الأوفر من هذا البلاء ، إذ نبغ فيه زعماء الغلو في الجمود والتعصب للمذاهب والرجال

قال الحجوي الثعالبي : «وحاصله أنه من زمن خليل إلى الآن زادت العقول فترة ، والهمم ركودا ، وتخدرت الأفكار بشدة الاختصار والإكثار من الفروع التي لا يحاط

---

(١) تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود : ٥١.

(٢) إيقاظ همم أولي الأبصار لصالح بن محمد الفلاني : ٢٦.

بها ، والصور النادرة ، فاقتصروا على خليل وشروحه ، حتى قال الناصر اللقاني : إنما نحن خليليون ، إن ضل ضل ضللنا» قال أحمد السوداني : «وذلك دليل دروس الفقه وذهابه ، فقد صار الناس من مصر إلى المحيط الغربي خليليين ، لا مالكية ، إلى هنا انتهت الحالة» [1] .

وقد قسموا مختصر خليل أربعين حزبا ، وكان المغاربة إلى عهد قريب يسردون هذه الأحزاب في المساجد والزوايا كما يسرد القرآن .

وكان من أشدهم غلوا في ذلك أصبغ بن خليل المالكي الأندلسي الذي لم يكن يرى علما في الدنيا سوى ما في المدونة والمستخرجة ، فلما أدخل بقي بن مخلد مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة إلى الأندلس استشاط غضبا ، وكان يقول كما حكى عنه شيخ المالكية أبو عمرو السعدي « لأن يكون في كتبي رأس خنزير أحب إلي من أن يكون فيها مصنف أبي بكر بن أبي شيبة» [2] .

قال ابن العربي : « وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم إلا عند آحاد الناس واستمرت القرون على موت العلم ، وظهور الجهل ، وذلك بقدرة الله تعالى ، وجعل الخلف منهم يتبع السلف ، حتى آلت الحال إلى أن لا ينظر في قول مالك وكبراء أصحابه . . وصار الصبي إذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ، ثم نقلوه إلى الأدب ، ثم إلى الموطأ ،ثم إلى المدونة ، ثم إلى وثائق ابن العطار ، ثم يختم له إلى أحكام ابن سهل ،ثم يقال : قال فلان الطليطلي ، وقال فلان المجريطي ، وابن مغيث لا أغاث نداه ، فيرجع القهقرى ، ولا يزال إلى وراء ، ولولا أن الله تعالى منّ بطائفة تفرقت في ديار العلم ، وجاءت بلباب منه كالقاضي أبي الوليد الباجي ، وأبي محمد الأصيلي ، فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة ،

---

(١) الفكر السامي في تارخ الفقه الإسلامي : ٢/ ٢٤٥.

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : ١ / ٤٣٤.

وعطّروا أنفاس الأمة الذفرة ، لكان الدين قد ذهب »[١] .

ومن جنس هؤلاء أهل بطالة واسترواح لا هم في العير ولا في النفير ، لا يعرفون شيئا يقبلونه أو ينكرون ، رضوا بالتفويض والتسليم ، وقنعوا بالرسوم وقالوا هل من مزيد . يعرفون الحق بالرجال ، ويتبعون الرأي لشهرة صاحبه ، أو لكثرة من قال به ، أما دلائل النظر ونخل المعارف فلا يميزون فيها قبيلا من دبير .

وقد صار على نهجهم أهل التسليم للرجال من أتباع الطرق الصوفية ، والحوزات الشيعية ، ممن اعتقدوا عصمة المشايخ والأئمة ، وأسلسوا الزمام لآرائهم وأهوائهم ، ورأوا أن «من قال لشيخه : لم وكيف؟ لايفلح» .

ومن جهة هؤلاء العوام المقلدين لآراء الرجال انتشر في تراث المتأخرين وشاع بين الناس فكر الخرافة والتسليم بالأوهام والأساطير ، وتعطيل نعمة النظر في سنن الله الشرعية والكونية .

فراج بين العوام ، «أن سفينة نوح قبل أن تستوي على الجودي طافت بالبيت سبعا ، وصلت عند المقام ركعتين »[٢] .

وشاع بين المتصوفة أن فلانا من الأبدال كان يطير في السماء وآخر يسير فوق الماء ، وآخر يدخل النار ولا يحترق ، وآخر تُطوي له الأرض طيا ، فيصلي الظهر في المغرب ، والعصر في مكة . وأن السيد البدوي كان يستنقذ الأسرى من سجون

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون : ١/ ٦٦، نقلا عن العواصم من القواصم لابن العربي .

(٢) وهو خبر موضوع من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. عن الساجي قال : حدثنا الربيع، حدثنا الشافعي قال : قيل لعبد الرحمن بن زيد : حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال : «**إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين؟**» ، قال : نعم . وقد ذكر رجل لمالك حديثا منقطعا، فقال : اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح!!

قال ابن حبان : «كان ممن يقلب الأخبار حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك» تهذيب التهذيب لابن حجر (٦ / ١٧٩) .

الإفرنج وهو فوق سطح بيته بمدينة طنطا بمصر !!

وأمعن رواة الأساطير أمثال مؤمن بن حسن الشبلنجي ت ١٢٩٠هـ في الترويج للخرافات وبيان تسليم العلماء لمشايخ الطريق من الصوفية حيث ذكر في نور الأبصار حكاية غريبة مفادها : « أن ابن دقيق العيد كان ينكر على الشيخ أحمد البدوي ويقول : إن هذه الحال الذي أنت فيه ما هو مشكور ، فإنك لا تصلي ولا تحضر الجماعة ، وما هذه طريقة الصالحين ، فالتفت إليه السيد البدوي وقال : اسكت وإلا أطير دقيقك ، ودفعه دفعة فلم يشعر بنفسه إلا وهو في جزيرة واسعة لا يعرف لها طولا ولا عرضا ، فأقبل يلوم نفسه ويعاتبها وهو ذاهل العقل ، ويقول مالي ومعارضة أولياء الله تعالى ، وصار يبكي ويستغيث ، ويبتهل إلى الله ، فبينما هو كذلك إذ رأى الخضر عليه السلام ، فصار ابن دقيق يبكي ويقبل رأسه ورجليه ، فقال له إن هذه الجزيرة تبعد مسيرة ستين سنة عن القاهرة ، فازاد هما وغما ، فإذا بيده أراه قبة كبيرة من ذهب ، وقال إن السيد البدوي يأتيها كل يوم يصلي فيها العصر بجماعة من الرجال ، فإذا صليت معهم فتعلق به ، وتملق بين يديه ، وقبل يديه ورجليه ، واكشف رأسك ، وتأدب معه ، وقل له أستغفر الله وأتوب إليه ولا أعود لما صدر مني ، قال : فدفعه الشيخ دفعة لطيفة ، وقال اذهب إلى بيتك فإن عيالك في انتظارك ، فلم يشعر ابن دقيق العيد إلا وهو واقف عند باب داره في مصر ، ومكث مدة لا يخرج من بيته» [١] . فصار ابن دقيق العيد كما زعموا مُعظما للسيد البدوي ، وظل موسوسا مصابا بداء الفالج بسبب ذلك كما زعموا إلى آخر عمره عمره .

وهذا كذب مكشوف ، ومحض خيال قبح الله واضعه ، فأي جزيرة هذه التي تبعد عن القاهرة مسيرة ستين سنة ، مع أن هذه المسافة لا توجد على وجه الأرض أصلا ، و كيف يقع في سنن الله أن تُخرق العوائد للدجالين بهذا الشكل ، حتى

---

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي : ٢/ ٢٦٤ .

تصبح الأرض كالخاتم في أيديهم يعبثون بها ، كما يعتقد هؤلاء المجانين ، وعجيب أن يُروج هذا الغثاء في المنتديات الثقافية ، وينشر باسم العلم في مواقع الطرق الصوفية المعاصرة في مصر والشام وغيرها .

وذكر الشعراني : «أن الشيخ علي وحيش من مجاذيب النجارية كان يقيم في المحلة في خان بنات الخطأ « أي العاهرات » ، وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج ، فيشفع فيه ، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته» (١) .

وأن إبراهيم الدسوقي كان يتكلم سائر لغات أهل الأرض كما قال الشعراني : «وكان ﷺ يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي ، وسائر لغات الطيور والوحوش» (٢) .

وشاع بين الشيعة : أن رجلا من النواصب تكلم في الحسين يوم مقتله في كربلاء فرماه الله بكوكبين من السماء وطمس بصره (٣) .

ونحو ذلك من الأساطير التي امتلأت بها كتب الشيعة والمتصوفة ، كروض الرياحين في حكايات الصالحين لليافعي اليماني ، ولواقح الأنوار في طبقات الأخيار للشعراني ، والإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ لأحمد بن المبارك ، وروضة الآس ومحادثة الأكياس بمن أُقبر من الصلحاء بفاس للكتاني ، وتطريز الديباج لأحمد بن بابا التنبوكتي ، وغيرها .

فعشش بذلك الجهل والتخلف في ديار المسلمين ، وأنس الناس بالركون إلى الجمود والتسليم بكل ما قيل ، وانفتح السبيل لأعداء الإسلام وخصومه المغرضين

---

(١) طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ١٤٩.

(٢) طبقات الصوفية للشعراني : ١/ ١٦٦.، ونور الأبصار للشبلنجي : ٢/ ٢٦٦.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨/ ٢٠٣.

للطعن في الدين ، والتسلل إلى حصونه لتخريبها من الداخل .

٢ ـ دعاة الحداثة والثورة على التراث :

ويمثل هذا الاتجاه طائفة من العلمانيين من المفتونين ببريق الحداثة ، والاعتداد بسلطان العقل ، ومعارف الغرب ، مع الإزراء بعلوم السلف ، والتنكر لمآثر الماضين ، بدعوى تخلفها عن روح العصر .

وأكثرهم مردوا على المخاتلة والالتواء ، وانسلخوا من العلم والدين انسلاخ الأفاعي الرقطاء ، فصاروا يضاهون بسخافاتهم علوم الراسخين ، ويطاولون الأكابر في قلة حياء ، وقماءة دين ، وكبرياء صاغرين ، يزعمون بذلك تجديدا للتراث ، وتحديثا للمجتمع حتى يلحق بركب العولمة ، وحالهم مع هذه الشريعة كحال من جاء إلى شاطئ بحر خضم متلاطم الأمواج ، فبال في طائفة من الرمل ، ثم قال هذا بحر ثان فانظروا إليه!!

فتراهم يتحدثون عن هذا التراث بمنطق التجني لا التبني ، لانمحاء روح الهوية والأصالة من نفوسهم ، وسيطرة بريق الاستلاب على عقولهم ، وأكثرهم يرون أن الأمة إنما تستنسخ تاريخها وتعيش على أمجاد الآباء والأجداد بتبنيها لهذا التراث والدفاع عنه والبناء عليه .

وقد سخر من أمثالهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي قائلا : «إنهم يريدون أن يجددوا كل شيء ، حتى الدين واللغة والشمس والقمر!!» [1] .

وقد صار لهم اليوم حنق عجيب على الشريعة وتاريخ الأمة وعلمائها ، فرفعوا عقائرهم بمنابذة التراث والمعرفة الإسلامية وأعلامها ، وهدم أحكام الشريعة وعزلها عن الواقع .

وقد مثل هذا الاتجاه جيل النكسة العربية من الكتاب والمثقفين والشعراء ممن

---

(١) خطابنا الإسلامي في عصر العولمة للشيخ القرضاوي : ١٣١.

رضعوا ألبان الماركسية والقومية والليبرالية .

وكان أشدهم عُراما وشراسة وحُمقا «طه حسين» في كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي كذب فيه القرآن ، وسفه التواريخ وكثر جهله وغلطه . . لأنه كان «متخلف الذهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ، وأكبر ما معه أن يتحذلق ويتداهى ، ويتشبه بالمفكرين» كما قال الرافعي ~ [(١)] .

وقد دعا في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» إلى الانسلاخ من قيود الهوية ، والسير في ركاب الحضارة الغربية ، لنقض عرى الأصالة ، والارتماء في بحر المادية الغربية الموار بكل عجيبة وغريبة .

وقد وصفه الرافعي ~ بأنه : « دائب في إزالة ما وقر في نفوس المسلمين من تعظيم نبيهم وكتابهم مرة بالتكذيب ، ومرة بالتهكم ، ومرة بالزراية ، ومرة بإفساد التاريخ ، ومرة بنقل الأخلاق الفاحشة المتعهرة من حضارة الفرنسيين ، وهلم جرا ، حتى كأنه شيطان عاقبه الله فطمره في جلد إنسان» [(٢)] .

وكذلك شيخ العلمانية القديم جميل صدقي الزهاوي ١٩٣٦م ، الشاعر المتمرد ، الذي شك في وجود الله ، سئم كل قديم ، ودعا إلى اعتناق نظرية داروين ، وإلى الثورة على التراث والدين و التقاليد الإسلامية ، مختزلا تخلف المسلمين في حجاب المرأة المسلمة ، حيث قال :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي إن كان عندك شيء من الجديد

وتبعه على ذلك خلائق أمثال : أدونيس في كتابه «الثابت والمتحول» ومحمد عابد الجابري في كتابه «نقد العقل العربي» ، وطيب تزيني في كتابه «مشروع رؤية جديدة للتراث العربي في العصر الوسيط» ، وكتابه «من التراث إلى الثورة» الذي قرر فيه من

---

(١) تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي : ٩ .

(٢) تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي : ٢٠١ .

خلال المنهج المادي التاريخ والتحليل الماركسي للتراث أن كتابات المستشرق الشيوعي كراتشفوفسكي صاحب القواعد التقدمية في قراء التراث الإسلامي «تشكل إسهاما جديا على طريق إعادة الاعتبار لذلك التاريخ والتراث الإسلاميين» [١] .

ثم حسن حنفي زعيم «اليسار الإسلامي» في كتابه «نحن والتراث» وغالي شكري في مؤلفاته «النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، وأقنعة الإرهاب ، البحث عن علمانية جديدة ، وأقواس الهزيمة ، وعي النخبة بين المعرفة والسلطة» .

وكذلك فرج فودة في مؤلفاته الساخرة بالتراث وأحكام الشريعة ، وفاطمة المرنيسي في كتاباتها عن التراث النسائي في التاريخ الإسلامي ، الممعنة في نقل أخبار الكذابين ، وغيرهم ممن يستغلون في تحريفهم وكذبهم جهل المسلمين .

ثم محمد عابد الجابري الذي عُني زمنا بإعادة قراءة التراث ، وتأثر بالمفكر الفرنسي «باشلار» فجمع أخلاطا ومزيجا إيديولوجيا لإعادة صياغة التراث حيث يقول : «اللغة والشريعة والعقيدة والسياسة في الماضي والحاضر تلك هي العناصر الرئيسية التي تتكون منها المرجعية التراثية التي قلنا : إنه لا سبيل إلى تجديد العقل العربي إلا بالتحرر منها» [٢] !! .

وأكثر هؤلاء العلمانيين ودعاة الحداثة قد تأثروا بخطاب جيل النكسة وهزيمة القوميين العرب بزعامة جمال عبد الناصر أمام إسرائيل عام ١٩٦٧م ، فصار لهم نقمة على الإسلام وتراثه ، وعلقوا هزائمهم وسقوط أقنعة مذاهبهم على مشجب الأصالة والماضي والتراث ، في حين لم يقدموا للأمة خيرا أوبديلا يشفع لكلامهم ،

---

(١) من التراث إلى الثورة، طيب تزيني : ٥٧٣ ط الثالثة بيروت ١٩٧٩م.

(٢) بنية العقل العربي لمحمد عابد الجابري : ٥٧٢ .

ويسوغ لدى العقلاء منطق الهجوم على الماضي عندهم ، بل كانوا كما هجاهم أحمد شوقي في قصيدته :

قـم في فَـمِ الـدنيا وَحَـيِّ الأَزهَـرا وَانثُـر عَـلى سَـمعِ الزَمـانِ الجَـوهَرا

لا تحـذ حـذو عـصابة مفتـونة يـرون كـل قـديم أمـر منكـرا

ولـو استطاعوا في المجـامع أنكـروا مـن مـات مـن آبـائهم أو عُمِّـرا

مـن كـل سـاع في القـديم وهدمـه وإذا تقـدم للبنايـة قـصَّرا [1]

ونحـن نعلـم أن مـن وراء هـؤلاء الحـداثيين دوائـر المكـر الـصليبية الحاقـدة عـلى الإسلام وأهله ، وأنهم لا يشتغلون بعزة نفس وبراءة دين طلبا للحق ، بـل يـساقون إلى ذلك سوقا كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة للنيل من الشريعة وأعلام الأمة ، يقارعون الجبال الراسيات لعلهم يحدثون بها خدوشا أو خموشا يلفتـون إليهـا أنظـار الناس . لكن أنى لهم ذلك .

٣ـ المستشرقون والغارة على التراث :

المستـشرقون أمـة مـن البـاحثين اشتغلوا بعلـوم الـشرق ، ودراسـة تاريخـه وبيئتـه وحضارته وأديانه وعاداته ، وكانت دوائر الاستشراق هي الجناح الفكري للصليبية الحديثة لتطويق الأمة ، وقد تخصص طائفة منهم في دراسة تاريخ المسلمين وتـراثهم حتى نبغوا في ذلـك ، كـما تخـصصوا في دراسـة خبايـا أحـوال المـسلمين ، وعـاداتهم ، ومعايشهم ، وطرائق تفكيرهم .

من طالع جهود المستشرقين يأخذه العجب مـن جلـد القـوم وتفـانيهم في خدمـة مراميهم وأغراضـهم في دراسـة هـذا الـدين ، ويعجـب في ذات الوقـت مـن ضـعف المسلمين وهوانهم في هذا الشأن .

يقول محمود محمد شاكر : « لقد كان المستشرقون جند المسيحية الـشمالية ، الـذين

(١) ديوان الشوقيات، لأحمد شوقي : ١/ ١٥١.

وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر ، ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة ، والغنى والصيت الذائع ، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختبئة وراء أكداس من الكتب ، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها ، وفي قلوبهم كل اللهيب الممضي ، الذي في قلب أروبا ، والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام» [1] .

وقد تتبع نجيب العقيقي جهود المستشرقين وإنتاجهم خلال ألف عام ، فبلغ ما كتبه مجلدين كبيرين . ومع الأسف فإنه ظل مخدوعا بالمستشرقين وتراثهم ، ولذلك عرض نتاجهم عرض الفرح الفخور غافلا أو متجاهلا ما سببه هذا التراث من خراب في العقول .

وقد تخرج من مدارس المستشرقين جيل خبير بها في ديار الإسلام قديما وحديثا ، متمكن من معرفة تاريخه وتراثه ، متمرس بأساليب التعمية والتحريف لحماية الغربيين المتطلعين ، ورعايا الكنيسة من أن يروا نور الإسلام على حقيقته ، حتى أضحى متخصصا في دراسة الشرق ، ماهرا بمعرفة أرضه ومياهه ، وجباله وأنهاره ، وزروعه وثماره ، وأهله ورجاله ، ودينه وعاداته ، ولغاته وثقافاته ليرتاد الطريق لجحافل الصليبية ، ويعبد أمامها المجاهيل .

ومن أشهر من كتب تراثنا وتاريخنا من المستشرقين : ألفردجيوم الإنجيزي محقق كتاب « كتاب نهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني» ، وجولدسيهر المجري اليهودي ت ١٩٢١هـ صاحب «مذاهب التفسير الإسلامي » ، الذي ترجم إلى العربية باسم «العقيدة والشريعة في الإسلام» . والقس « صمويل زويمر»الأمريكي ، أحد غلاة المبشرين في الشرق ، وأستاذ البعثات و تاريخ الأديان في جامعة برنستون اللاهوتية ، والمستشرق لويس ماسينيون مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية ،

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر : ٧٣-٧٤.

وصاحب «حوليات العالم الإسلامي» والباحث في التصوف الفلسفي للحلاج وابن سبعين ، والمؤرخ مكسيم رودنسون الشيوعي الفرنسي الذي أتقن التركية والعربية ودرس التاريخ الإسلامي وألف كتابه «Mahomet» ، ومال إلى نقد الاستشراق الاستعماري في آخر حياته .

ومن تلاميذهم الأوفياء لمناهجهم ومداركهم : عزيز عطية سوريال المصري ، وفيليب حتى اللبناني الأصل الأمريكي الجنسية ، ومجيد قدوري النصراني العراقي ، وجرجي زيدان ، وطه حسين وسلامة موسى ، وغيرهم . وقد تلونت مناحيهم في تشويه تاريخنا وتراثنا بتلون مذاهبهم وأغراضهم

فسلك بعضهم مسلك الحقد الصريح ، ولم يتورع في إظهار عدائه وحقده على الإسلام وأهله أمثال المستشرق الفرنسي «دير بيلو» الذي وصف الرسول ﷺ بأنه كان «دجالا» و«هنري لامانس» الذي وصفه بأنه كان «لص نياق» ، ثم «فيتزجيرالد» الذي ادعى «أن الشريعة الإسلامية ماهي إلا قانون جستنيان الروماني في لباس عربي» [(١)] .

وقد كشف أهداف غلاة المستشرقين في الشرق القس زويمر في خطابه بمؤتمر القدس عام ١٩٣٥ م حيث قال : «ولكن مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ،وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي فلا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية» [(٢)] .

---

(١) الاستشراق والمستشرقون لمصطفى السباعي : ٤٤٥ . بلوغ الأماني في تاريخ الفقه الإسلامي للمؤلف : ١٢ .

(٢) خطاب القس زويمر في مؤتمر في القدس عام ١٩٣٥م .

ومنهم من تدثر بالمظهر العلمي ، واتسم بسمات التحقيق كالعلماء الباحثين ، ليدس في الاسلام مايشاء من السموم ، أمثال «جولدسيهر» الذي ادعى أن الأحاديث ليست من كلام الرسول ﷺ ، وإنما صنعت في القرون الثلاثة الأولى ، وأن الأحكام الشرعية لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول ، بل كان الجهل بها وبتاريخ الرسالة لاصقا بكبار الأئمة ، كأبي حنيفة الذي لم يكن يعرف هل كانت بدر قبل أحد أم بعدها . !!

كما اتهم عثمان بأنه أحرق المصاحف التي كانت بأيدي الصحابة ليتسنى له التحريف والعبث بالمصحف الإمام الذي دونه وجمعه ، واتهم الزهري الذي أجمعت الأمة على أمانته بأنه كان يضع الحديث لبني أمية ، وأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى محاباة وتزلفا لعبد الملك بن مروان ، ضد ابن الزبير الذي اعتصم بمكة . مدعيا في كل ذلك التجرد والموضوعية واتباع المنهج العلمي ، مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سنين من موت ابن الزبير .

كما وُجد من المستشرقين رجال منصفون ، لكنهم قليلون ، وإنصاف هؤلاء كان يدفعهم إلى الإيمان ، حيث أعلن بعضهم إسلامه أمثال المستشرق «رينيه جون» الذي أسلم وتسمى باسم «ناصر الدين رينيه» ، وفضح كثيرا من خطط المستشرقين . و«إبراهيم خليل أحمد المصري» الذي أراد أن يقدم رسالة دكتوراه في بيان تناقضات الإسلام فغلبه القرآن وأعلن إسلامه ، وكتب كتابا بين فيه الطريقة التي يعمل بها المبشرون والمستشرقون والجهد الذي تقوم به الكنائس في مصر .

وأكثر المستشرقين الذين اشتغلوا بالدراسات العربية الإسلامية كانوا من اليهود والنصارى الذين تملكت نفوسهم الروح الصهيونية والصليبية في بحث ودراسة تاريخ وتراث العالم الإسلامي وحضارته ، فصارت تؤلمهم الحقائق عندما تتبدى وتظهر .

كل ذلك ظل رصيدا متراكما لدى هؤلاء المستشرقين ، وكون عندهم صورة قاتمة مظلمة عن هذا الدين الذي سفه أحلامهم وكشف زيف أديانهم ، فمهما ادعوا التجرد والموضوعية طفت تلك الأحقاد المتراكمة عبر تاريخ طويل من الحروب الصليبية ، وحروب اليهود ضد الإسلام فحالت دون البحث بعين الحق والبصيرة ، وحلت محلها الأهواء .

والحاصل أن هذيان المستشرقين في تفسير وتشويه التراث الإسلامي لا يقام له وزن ، بل يرمي في كل وعر وحزن ، ولانرى شيئا من ذلك يستحق المناقشة في عصرنا هذا ، لأنه لا يستند إلى أدلة علمية ظاهرة ، بل مستنده الأهواء والحقد الصليبي الأسود ، فهو كصرير باب ، أو طنين ذباب ، مضى يمضي زمانه .

٤ ـ المتطفلون النكرات والجرأة على التراث :

وهم خلق من النكرات والجرأة على المعرفة الإسلامية ، وهم قاصمة الظهر ، أكثرهم من طحالب الفكر التي تطفو على السطح بين الفينة والأخرى ، و المجاهيل الذين لم يعرفوا بطلب العلم الشرعي في أنفسهم ، ولا عرفهم العلماء به .

تراهم يضاهون علوم الراسخين ، ويحشرون أنفسهم فيما لم يتأهلوا له من الرد على المتقدمين بدعوى أن القوم رجال ونحن رجال ، ويشتغلون بالتنظير قبل التأصيل ، فيأتون بكل عجيبة وغريبة ، بأفكار نشاز ، ورؤى عليلة ، لم تعتصم بعلم ولم تأو إلى ركن وثيق ، يضاهون بها صحيح المعرفة الإسلامية ، في قماءة دين ، وكبرياء صاغرين ، يستنبتون بذلك بقلا غثا في قيعان كدرة ، بجانب بحر علوم أهل الإسلام .

وقد شقيت الصحافة العربية في مصر والشام منذ زمن مبكر بأفكار هؤلاء المتشبعين بما لم يعطوا ، كما شقيت بهم الصحافة المغربية عندنا ، لاستشراء الجهل والعماية بين القوم ، وفشو الرعونة وصفاقة الوجه ، وقلة الحياء بين هؤلاء المشاغبين على الفكر الإسلامي .

اقرأ صحافة الأحداث والسخافات الفكرية والسياسية ضمن جرائد من لا جريدة له ترى جرأة على العلم والدين ، ووقاحة تطاول السماء سفاهة ، وتفاخر إبليس في الاستهزاء بنصوص القرآن والسنة ، والإزراء بعلماء الأمة ، والحط من مكارم الإسلام .

وما يزال دعاة الحداثة وأساتذتهم من المستشرقين اليوم بجامعات الغرب يحرفون المعالم المشرقة في التراث الإسلامي ، ويتتبعون السقطات والنقط المظلمة من تراث المتصوفة ، والقرامطة ، وجهالات الرافضة ، والإسماعيلية الباطنية ، والبابية والبهائية ، والأكاذيب والترهات والأساطير والخرافات المدسوسة في التاريخ الإسلامي ، وإحيائها للتشويش على الفكر الإسلامي المصفى الذي يضطلع بنشره اليوم علماء الصحوة الإسلامية .

ومن هذا النمط في مصر نوال السعداوي التي لا تعرف ما يعرفه صبيان المكاتب في أمور الدين ، ثم تراها تتطاول على مصادر الشريعة ، وتستهزيء بأحكامها ، وترى أنه ليس ثمة نص في القرآن يحرم السفور ، وتمعن في تزوير الحقائق والإزراء بالمقدسات .

وكذلك المستشار « محمد سعيد العشماوي » الذي فتن خلقا من المتفرنجين بكتاباته السخيفة عن الإسلام السياسي ، ولم يزل دائبا في نقض عرى الملة ، وهدم أركان الفضيلة ، ونسبة كل نقيصة للمسلمين ، بأدلة متهافتة جوفاء ، لا سند لها في تاريخ النظام الإسلامي .

وهو رجل نكرة في علوم الشريعة ، تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٥٥ وعاش حياته متقلبا في وظائف الدولة ، بين محاكم القاهرة والإسكندرية ، ورئاسة محكمة أمن الدولة ، واشتغل محاضراً في أصول الدين والشريعة والقانون في الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وجامعة توبنجن بألمانيا الغربية ، وأوبسالا بالسويد ، ومعهد

الدراسات الشرقية بلينينجراد بروسيا ، والسوربون بفرنسا .

يقول عن نفسه بأنه نشأ نشأة صوفية! حيث كان يرتاد مسجد السيدة زينب والسيدة نفيسة ومسجد الحسين!

واشتغل زمنا بتأليف رسائل فلسفية منذ عام ١٩٦١م مثل «تاريخ الوجودية في الفكر البشري ، وضمير العصر ، وحصاد العقل» . ثم تولج بغير عُدة مجال الفكر الإسلامي عام ١٩٨٠م فألف «أصول الشريعة» ، و«الإسلام السياسي» ، و«جوهر الإسلام» ، و«الخلافة الإسلامية» ، و«الشريعة الإسلامية والقانون المصري» وغيرها .

ويعد العشماوي من دعاة العلمانية المنادين بفصل الدين عن الدولة ، في ظل المدرسة العلمانية الحديثة ، وقد كرس حياته للتشنيع على نظام الحكم الإسلامي ، والتهجم على دعاة تطبيق الشريعة .

و يزعم العشماوي في صفاقة وجه وقلة حياء ، أنه من المجتهدين!! حيث يقول : «وأعتقد أنه يوجد الآن تياران إسلاميان وليس واحداً ، التيار الأول : عقلي تنويري ، بدأ بمحمد عبده ، ويسير فيه بعض المجتهدين من أمثالي » [(١)] .

ومن غرائب اجتهاداته العلمانية السخيفة زعمه أن اليهود والنصارى من أهل النجاة يوم القيامة وإن لم يؤمنوا بالإسلام!! حيث يقول : «وكل من آمن بالله إيماناً صحيحاً واستقام في خلقه فهو عند الله وبلفظ القرآن مسلم لا خوفٌ عليه ولا حزن : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]» .

غير أن بعض الفقهاء يرون أن هذه الآية منسوخة بالآية : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ

(١) حوار حول قضايا إسلامية، إقبال بركة، : ١٩٩ .

دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، ويرتبون على ذلك ـ وعلى الظن بأن الإسلام مقصور على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ـ إن أي إيمان بالله لا يؤجر وأي عمل صالح لا يثاب إلا إذا كان فاعله من المؤمنين بدعوة النبي الكريم وبرسالته» (١) .

ثم يردف قائلا : « والواقع أن من يرى هذا الرأي إنما يراه وقد غاب عنه المعنى الحقيقي للإسلام ، وخفيت عليه خطة الله في البشر ، واضطرب في ذهنه معنى النسخ في القرآن ، فالإسلام هو الدين الذي أوحى به الله إلى الأنبياء جميعاً والرسل كلهم فدعوا إليه . . فإن من آمن بالله وعمل صالحاً من المؤمنين أو اليهود أو النصارى فأجره عند الله ، لا خوف عليه ولا حزن . والمقصود من آية : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، من يبتغ غير دين الإسلام الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل والذي اعتنقه أتباعهم » (٢) .

وهذه عقيدة فلاسفة وحدة الأديان التي دعا إليها ابن عربي الحاتمي ، انبعثت من جديد بخطة استعمارية لتمتص الاحتقان ضد الصهاينة والصليبيين وتخفف العداء لهم في بلاد المسلمين ، وقد صار يروج لها اليوم أذناب المستشرقين ونوابهم في البلاد العربية أمثال العشماوي ، ومحمد أركون ، وفرج فودة وحامد نصر أبو زيد .

ومن بلاياه إسقاطه حد شرب الخمر حيث يقول العشماوي : «لا توجد أية عقوبة على شربها أو بيعها ، لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية» ثم يقول : «إن العقوبات تزيد من عدد الجرائم ، ولا تجتث الجريمة أصلاً » (٣) .

وهذ غاية السفه والجرأة على النصوص بل يرى «أن تطبيق الشريعة يهدف إلى

---

(١) جوهر الإسلام، للعشماوي : ١١٠ .

(٢) جوهر الإسلام، للعشماوي : ١١٠ .

(٣) الإسلام السياسي، ص٥١ .

تفتيت وحدة الشعب وإلى إظهار الإسلام بصورة سيئة . . وأن الشريعة تعني الطريق والسبيل ، ولا يلزم الأخذ بنصوصها؛ لأن مبنى الشريعة يقوم على الروحانيات! وللناس أن يطبقوا ما يشاؤون » [١] .

وقد خصص العشماوي كتابه «الإسلام السياسي» لإثبات وجوب فصل الدين عن الدولة ، لأنه حسب زعمه لاسياسة في الإسلام ، مدعياً «أن النبي ﷺ لم يحكم الناس كملك أو أمير أو رئيس أو سلطان وإنما حكمهم كنبي من الله» [٢] .

وعليه فإنه ليس ثمة حكومة دينية تقوم على شريعة الإسلام؛ لأن ذلك في زعمه خاص بالنبي ﷺ حيث يقول : « فالخلافة الإسلامية من واقع نشأتها . . ظهرت كرياسة دنيوية وإمارة واقعية لا تؤسس على نص ديني ولا تقوم على حكم شرعي» [٣] .

وقد أمعن في تشويه تراث الحكم الإسلامي وزعم : «أن تاريخ الإسلام تاريخ دموي قمعي! وأن الفقه الإسلامي يخلو من أي نظرية سياسية أو نظام سياسي ، وأن الغالب على اعتناق الناس الآن إسلام البداوة ! لا إسلام الحضارة » [٤] .

وهذه شنشنة دعاة الحداثة الذين يرون أنفسهم فلاسفة التقدم والرقي الحضاري ، ويرون غيرهم من المسلمين أعرابا بداة يعيشون في عصور الظلمات والرجعية

---

(١) الشريعة والقانون المصري، مجلة أكتوبر، العدد ٧٠٦، والمجلة العربية مقال : العشماوي بين حرية الفكر وحرية الكفر، للأستاذ أحمد أبو عامر، شعبان ١٤١٢هـ).

(٢) الإسلام السياسي : ٩٠.

(٣) الإسلام السياسي : ١٠٢.

(٤) انظر : العقلانية هداية أم غواية، لعبد السلام البسيوني، ص١٢٥، وقد رد عليه كثير من العلماء منهم الشيخ الشعراوي في «الأنوار الكاشفة لما في كتاب العشماوي من الخطأ والتضليل والمجازفة »، ومحمد عمارة في مقالات عدة .

والتخلف !!

وتراه يستنكر على من يدعي نقاء وصفاء تاريخ الخلافة الإسلامية الراشدة ويزري بعهودها ويهون من شأنها ، بدعوى أنه يمكن أن تسير أمورنا دون حاجة إليها [١] .

وقد حمله ذلك على الطعن في سياسة أبي بكر ﷺ بأنه اغتصب حقوق النبي ﷺ عندما طلب من المرتدين أداء الزكاة التي يسميها الإتاوة أو الجزية !! وأن طلب الزكاة من المسلمين في زعمه خاص بالنبي ﷺ مقابل صلاته عليهم [٢] .

واتهم العشماوي لأجل ذلك أبابكر ﷺ بالاستبداد والتسلط ، حيث قال : «وقد سوَّغ تصرف الخليفة الأول أبي بكر الصديق لكل خليفة وأي حاكم أن يستقل بتفسيره الخاص لآيات القرآن ، ثم يفرضه بالقوة والعنف على المؤمنين ، ويجعل من رأيه الشخصي حكماً دينياً ، لقد قنن الخليفة الأول بحروب الصدقة إشهار سيوف المسلمين على المسلمين » [٣] .

وقد أمعن العشماوي في هذا التجني على التراث وتاريخ الإسلام بالطعن في عثمان وعلي { ، حيث قال : «ولم يقتصر الفساد على عهد عثمان وعلى الأمويين وحدهم ، بل حدث كذلك في عهد علي بن أبي طالب» [٤] .

ومن فواقر العشماوي زعمه أن أحكام الشريعة في المعاملات مؤقتة ، لا استمرار لها ولا خلود ! يقول : «إن المؤبد في أحكام القرآن ما تعلق منها بالعبادات ، أما

(١) الإسلام السياسي : ٣٠ .

(٢) الإسلام السياسي : ١٠٦.

(٣) الإسلام السياسي : ١٠٦.

(٤) الإسلام السياسي : ١١٣.

أحكام المعاملات فهي وقتية» (١) .

وذلك حتى يسوغ دعواه الباطلة في مشروعية التعامل بالربا ، واستباحة الفائدة في المعاملات المالية . والرجل نموذج لدعاة الحداثة وأهل الجرأة والتجاسر على الشريعة بالكذب والتحريف دون عدة!!

وآخر من لز في هذا المضمار في زمن الحداثة كاتبة علمانية مأجورة في المغرب تدعى «خديجة البطار» ، تولجت بابا من العظائم ، بالطعن في الأكابر ، و أصبحت السنة النبوية معها في زمن التيه الثقافي كلأ مباحا يلغ فيه كل جاهل ، ويستبيحه كل دعي .

فمن الهجوم على أعلام الأمة كالإمام القرطبي وفقهاء المالكية إلى مهاجمة الإمام البخاري والطعن في صحيحه ولعنه على رؤوس الأشهاد ، في مقالها «البخاري كان بينه وبين الحق حجاب» (٢) .

وهذه المغبونة لا تصلح أن تكون شسعا لنعل الإمام البخاري أيام كان يقطع المفاوز في الآفاق لطلب الحديث وتحقيق الأسانيد على شيوخ عقمت أرحام نساء هذا الزمان أن تأتي بمثلهم .

كما نشرت مقالا بعنوان « فجور فقيه ومالكيون بغير مالك» هاجمت فيه الإمام القرطبي المالكي المفسر ، وبنت وابل سخائمها وشتائمها له ولعلماء المالكية على خبر باطل لم يصح عن علي ﷺ نقله القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ،

---

(١) حوار حول قضايا إسلامية إقبال بركة، ص١٩٠.

(٢) جريدة الأحداث المغربية، عدد ٢٣ مارس ٢٠٠٢م. وانظر تفصيل الرد عليها في رسالة «االتشيع والعلمانية بالمغرب والهجمة على السنة النبوية» د.الحسن العلمي، ود.توفيق الغلبزوري، بتقديم العلامة محمد الأمين بوخبزة الحسني وكتاب « فتح الباري في الرد على المفترية على صحيح البخاري» للأستاذ. الزبير دحان.

وهو ما نسب إليه أنه قال : « أيها الناس لا تطيعوا النساء و لا تدعوهن يدبرن أمرا يسيرا ، فإنهن ان تركن وما يرين أفسدن الملك ، و عصين المالك ، وجدناهن لادين لهن في خلواتهن ، ولأروع لهن عند شهواتهن ، اللذة بهن يسيرة ، و الحيرة بهن كثيرة ، فأما صوالحهن ففاجرات ، وأما طوالحهن فعاهرات ، وأما المعصومات فهن المعدومات» [١] .

وهذا خبر سمج لا أصل له ولا يظن بمن صحبوا النبي ﷺ أن يتفوهوا بمثله ، لما فيه من القذف والرجم بالغيب ، وتعميم الحكم بفساد النساء جميعا ، مما لم تأت به الشريعة ولم يكن من هدي السلف ، وكيف يظن ذلك بصهر رسول الله ﷺ وزوج فاطمة الزهراء سليلة بيت النبوة [٢] .

وهذه النكرة حشرت أنفها في صنائع المحدثين النقاد دون عدة وأوهمت نفسها أنها تجري في مضمار أبي الحسن الدارقطني ، وأبي علي الجياني ، وابن القطان الفاسي ، وابن حجر ، وهي لم تشم لعلم الحديث رائحة ، كما ظهر بذلك جهلها في مقالاتها السخيفة!!

حيث ادعت أن علماء الأمة « أظهروا في أمهات الكتب بأن البخاري يعد رمزا لفقه التطرف واللاعقل [٣] في الإسلام ، فقد عمل في صحيحه على إعدام مبادئ الديمقراطية والشورى والتنوير التي نصت عليها السنة والكتاب ، كما عمل على نشر أحاديث الخوارج والغلاة الذين يسبون عليا على المنابر ونشر الإسرائيليات

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ، للقرطبي : ٨١٨.

(٢) ضعفه السخاوي في «المقاصد الحسنة» ٤٥٨، والعجلوني في سياق الحديث الموضوع « عقولهن في فروجهن» وقال في المقاصد لا أصل له ولكن حكى القرطبي في التذكرة عن علي : ثم ساق الخبر » كشف الخفاء : ٢ / ٨١.

(٣) وهذه كلمة هجينة لا وجود له في معاجم العربية.

والموضوعات»[١] .

وانتظرنا أن تثبت لنا صاحبة المقال أسماء بعض العلماء الذين أظهروا في أمهات كتبهم أن البخاري كان كذلك ، وأنه كان يروي الموضوعات والإسرائيليات ، فما وجدنا سوى الكذب والبهتان والضحك على الأذقان ، ومحاولة استغلال جهل بعض المسلمين لترويج مثل هذا الكذب عليهم ، وهذا الهذيان والفشار لم يعرف من نطق به قبلها سوى بعض المستشرقين الحاقدين على السنة .

وهذه المغبونة في حظها أعياها البحث أن تأت بدليل واحد على خطتها الفاجرة ، يصدق دعواها الكاذبة ، وأنا على يقين أنها على إياس من ذلك ، ولو سودت وجهها بالمداد ، فما هي إلا خيانة الأمة في دينها وسنة نبيها ، والكذب على العلماء ، وإلقاء الكلام على العواهن دون حجة أو برهان ، لعلها تجد آذنا صاغية في سوق العوام والأغفال .

٥ ـ العلماء والمفكرون النقاد ونخل التراث :

وجد في هذه الأمة صفوة من العلماء والمفكرين النقاد ممن لم يخل منهم عصر من العصور ، عاشوا لخدمة هذه الأمة وتراثها باستيعابه ونخله ، ثم البناء عليه وانتقاء النافع منه ، وكان من هؤلاء أئمة الحديث ونقاد الأثر ، وعلماء الفقه والأصول أئمة النظر .

وقد سار على نهجهم طائفة من المتعلمين على سبيل النجاة ممن فهموا حسن الفهم عن الله ورسوله ﷺ وأدركوا المنهج السليم في النظر والتفكير ، وتمكنوا من صناعة النقد والتمحيص ، وفقه مدارك الخلاف ومنازله وآدابه .

وهؤلاء نظروا إلى التراث الإسلامي على أنه ميراث علمي وأدبي لأمة أصيلة ،

(١) مقال البخاري كان بينه وبين الحق حجاب جريدة الأحداث المغربية، ٢٣ مارس ٢٠٠٢، ص : ١١ .

ذات تاريخ وهوية كريمة الأصول ، عريقة الجذور في التاريخ والحضارة ، فميزوا فيه الأصيل من الدخيل ، والصحيح من السقيم ، وسلموا بأنه لا يؤخذ كله ولا يترك كله ، وأنه لا حاضر ولا مستقبل لأمة ضيعت تراثها وتنكرت لتاريخها ، فصارت لقيطة هجينة بين الأمم ، فهم الخلف العدول في هذه الأمة ينفون عن المعرفة تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

صنيع السلف في النقد والرد على المتقدمين :

وقدكان للسلف في صناعة نقد المعارف والآثار قدم راسخة ويد صالحة ، فهم أول من فتح هذا الباب ، وفتق ذاك الجلباب ، فهم حماة السنن والآثار ، وصيارفة نقد المذاهب والأفكار .

فقد صنف الخطيب كتابا في الرد على البخاري ومسلم في تواريخ الرجال أسماه «موضح أوهام الجمع والتفريق» ، ومما قال فيه : «ولعل بعض من ينظر فيما سطرناه ويقف على ما لكتابنا هذا ضمناه ، يلحق سيء الظن بنا ويرى أنا عمدنا للطعن على من تقدمنا ، وأنا يكون ذلك وبهم ذكرنا وبشعاع . ضيائهم تبصرنا ، وباقتفائنا واضح رسومهم تميزنا ، وبسلوك سبيلهم عن الهمج تحيزنا ، وما مثلهم ومثلنا إلا ما ذكر أبو عمرو بن العلاء : « ما نحن فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال» [(١)] .

ثم قال : «ولما جعل الله تعالى في الخلق أعلاما ونصب لكل قوم إماما ، لزم المهتدين بمبين أنوارهم ، والقائمين بالحق في اقتفاء آثارهم ممن رزق البحث والفهم ، وإنعام النظر في العلم ، بيان ما أهملوا ، وتسديد ما أغفلوا ، إذ لم يكونوا معصومين من الزلل ، ولا آمنين من مقارفة الخطأ والخطل ، وذلك حق على العالم للمتعلم ، وواجب على التالي للمتقدم » [(٢)] .

---

(١) موضح أوهام الجمع و التفريق، للخطيب البغدادي : ١/ ٥.

(٢) موضح أوهام الجمع و التفريق : ١/ ٦.

وقال الذهبي «وما زال العلماء قديما وحديثا يرد بعضهم على بعض في البحث وفي التواليف ، وبمثل ذلك يتفقه العالم ، وتتبرهن له المشكلات ، لكن في زماننا قد يعاقب الفقيه إذ اعتنى بذلك لسوء نيته ، ولطلبه للظهور والتكثر نسأل الله حسن الخاتمة وإخلاص العمل» [1] .

ومن ثم فالفكر الإسلامي الصحيح لا يخلص ويستقيم لهذه الأمة إلا بعد غربلة ونخل تراث الأسلاف ، وتمحيص النافع والصالح منه لزماننا ، حتى يسلم التنظير ، ويستوى البناء عليه ، فيتصل الحاضر بالماضي والمستقبل في حلقات علمية وحضارية متماسكة ، لاترى فيها شذوذا ولا اعوجاجا أو خروجا عن الجادة .

وهذا يرتبط بقواعد منهجية في تاريخ الفكر والتراث الإسلامي ، وإدراك معالم المنهج السوي في تأصيل المعرفة ، وهي جملة قضايا منهجية تدور في فلكها هذه الرسالة ، أهمها مايلي :

١ ــ إعادة النظر في مناهج قراءة التراث :

إن أزمة الأمة اليوم أزمة فقه ومنهاج ، قبل أن تكون أزمة صدق وإخلاص ، وواجب الوقت اليوم يقتضي إعادة قراءة التراث قراءة علمية سليمة من الشوائب والأخلاط ، في الوسائل والمقاصد .

وذلك يقتضي أولا إعادة النظر في مناهج قراءة هذا التراث الفكري ، الذي صار له تجذر و امتداد في تفكير المسلمين اليوم ، حتى يكون منطلقنا في النظر والتفكير سليما ، فنميز الأصيل من الدخيل ، إذ لا يليق أن نتجاوز هذا الميراث الحضاري الذي ورثناه عن أسلافنا ، وننطلق من فراغ ، إلا أن يكون ذلك سفاهة وتجاهلا لجهود المتقدمين ، لن يفضي بالأمة إلى شيء .

ومعلوم أنه لا يتم ذلك على وجه سليم إلا مع سلامة المقاصد وسداد المنهاج ،

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٥٠١.

باعتماد قواعد النقد وأصول منهج النظر عند علماء الأمة المعتبرين من أئمة الحديث والأصول الذين تمرسوا بنقد المعارف والآثار ، واعتماد هذا المنهج الأصيل هو المخرج من تيه النظريات الزائغة والمناهج المنحرفة ، حتى لا تكون دراستنا للتراث دراسة تقديس واجترار لما قيل وكتب .

فإن من انحرف من فرق الضلالة في العقيدة والسلوك لم يؤت من جهة الإخلاص ، وحسن النية ، وإنما أتي من سوء الفهم والتأويل ، وفساد المنهاج ، فأكثر هؤلاء لم يعدموا صدقا ولا إخلاصا ، ولكن غابت عنهم قواعد الفهم ، واختل لديهم منهج النظر والمعرفة ، فقالوا بالأوهام ، وما دخل عليهم من البلاء كان من جهة تعلقهم بأفكار ونظريات فكرية نشاز من بنات سوء الفهم والتأويل أو سوء الوضع والتنزيل ، مما لا أثارة له من دليل ، أو سند من فكر عصر التنزيل .

فاشتغل هؤلاء بجدل تافه حول قضايا ميتة من التراث الدخيل ، هي من باب علم لا ينفع وجهل لا يضر ، وكثر فيهم التشنج لآراء بالية ، والتعصب للمذاهب والفرق والجماعات ، حتى رفعوها إلى مقام المقاصد والغايات ، وصار الولاء فيها والبراء .

وهي أهواء مزقت وحدة المسلمين ، وجعلتهم طرائق قددا ، من شيعة ، وصوفية ، وأصحاب ظاهر ، وأصحاب حقيقة ، يتعلقون بآراء الرجال فطمع فيهم الأعداء ، وصارت أغلب بلاد الإسلام بسبب تخلفهم ذيلا وذليلا تابعة لأئمة الكفر ، تستجدي قوتا ومعرفة ، ولا تملك قوة ولا قرارا .

ثم إنه اجتمع اليوم في طوائف المتأخرين من دعاة القومية والحداثة والعلمانية ما تفرق في أسلافهم من قبل ، من سوء المقاصد ، وفساد المناهج ، وضلال المشارب ، فطم السيل على القرى .

ولو حسن الفهم ، وسلمت النيات والمقاصد ، واستقامت المناهج ، وتميز الغث

من السمين ، وتحررت محال النزاع ، وسكت من لا يعلم لقل الخلاف ، واستراحت الأمة من عبء كثير تنوء بحمله وليس تحته عمل ، أو فائدة ترجى ، وسلامة المنهاج سبيل السداد .

٢ـ نقد المعرفة وتمييز الأصيل من الدخيل :

وذلك سبيل تصفية المعرفة الإسلامية مما علق بها من الحشو واللغو وحثالة والفكر الذي لا صلة له بالإسلام ، فاللازم أن يميز الناظر في قراءة التراث بين ما هو إسلامي أصيل ، وما هو دخيل على المعرفة الإسلامية ، منتسب إليها ، مما أدخل على المسلمين بالتمحل والتعسف ، مع أنه لا يمت إلى الأصول بصلة ، وذلك حتى تستريح الأمة من حمل الأوزار .

إذ لا يسلم المشرب للعقل المسلم ولا يصح بناؤه و«إعادة تشكيله» إلا بمنهج التصفية المستفاد من مناهج العلوم الإسلامية ، وهو خلاصة مراس لأهل الصناعة ، من المحدثين والفقهاء الأصوليين ، حراس المعرفة من مكذوب الأثر وشبهات النظر .

ويتجلى هذا المنهج في موازين نقد التراث وآراء الرجال ، التي تكون «نسق المنطق الإسلامي» الذي يعصم الفكر من الخطأ والزلل ، واستمداده من «أصول العقيدة ، وقواعد العربية وعلم أصول الفقه ، وقواعد الجرح والتعديل ، ومقاصد الشريعة» وهي علوم من لم يتمرس بها لم يدرك المنهج السليم للاستفادة من التراث ، و لا يكاد يسلم فهمه للإسلام بل أن يفكر و ينظر للأمة ، لأنه لن يأمن من الدخيل ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

وإنما يقوم بهذا المشروع من علت همته من حملة العلم المتمرسين بعلوم الأثر ، وأئمة الأصول ممن أحكموا إبريز العلم وإكسير النظر ، وتمرسوا بنقد المعارف والعلوم الحادثة في الملة ، فتلقوها بأعين ناقدة ، وعقول مبصرة نافدة ، ونخلوا دقها وجلها ، وميزوا غثها و سمينها .

كما قال النبي ﷺ : «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[(١)] .

ومن تصفح مؤلفات الخطيب البغدادي وابن عبد البر والجويني وابن حزم وابن الجوزي والذهبي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي والشوكاني وجد صدق ما قررناه ، وظهر له أن نخل المعرفة لا يكون إلا لمن كان على مثل نهج هؤلاء الأعلام ، وتمرس بصنائعهم .

وأما أهل الإسترواح القانعون بالتقليد الراضون باستهلاك ما في زبر الأولين ، فدونهم ودون ذلك خرط القتاد ، وصعود السماء ، لأنه أمر لا يسلم إلا لمن تعلم أن يقول : لم ؟ وكيف ؟ وأنى ؟ ومتى ؟

فذاك علم نقد المعارف والآثار علم صلف لا يسلس قياده لبليد ، ولا ينقاد إلا لمن تمرس بصناعة أهل الحديث والنظر بجريعة الذقن ، مع الغصص بها برهة من الزمن ، حتى يختلط هذا العلم بلحمه ودمه ، ويصير له فيه ملكة يغربل بها الغث من السمين ، و يميز في كتب التراث الشمال من اليمين .

أما من ولع بتقليب صفحات ، وترديد كلمات ، وتسويد ورقات ، بما اتفق ، من صحيح وسقيم ، أو بهرج زائف وثمين، ، فليرح نفسه من الكلال ، فإنما عمله تخسيركاغد ومداد ، وتعن في غير عائد ، وتضييع عمر وزمان ، وتعب حيوان ، والله المستعان .

---

(١) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار : ٣٢٦٩، والطبراني في مسند الشاميين :١/ ٣٤٤ وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ١٨٠ ، وفيه بقية بن الوليد مدلس، قال القاسمي وتعدد طرقه يقضي بحسنه كما جزم به العلائي : قواعد التحديث ٤٧ وذكره ابن القيم في مفتاح السعادة وقواه لتعدد طرقه ١/ ١٦٣ . واستظهر ابن الوزير اليماني صحته وحسنه لكثرة طرقه، ونقل ابن عبد البر تصحيح الإمام أحمد له، وترجيح العقيلي لإسناده «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» :١/ ٢١-٢٣، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح : ١/ ٥٣.

ومن ثم ظن كثير من المثقفين ممن لا صلة لهم بعلوم الإسلام ومناهج تنقيح التراث أن الفكر الإسلامي مجرد أخلاط وأمشاج من الكلام والأفكار الملتقطة من هنا وهناك ، من ثقافة الصحف والجرائد ، وأنه علم مشرع الأبواب لحرية التفكير والتنظير ، يلجه كل أحد ، فصار كل من كتب شيئا عن الإسلام ينتظم عندهم في سلك المفكرين للإسلام والمنظرين له ، وهذا ظن العاجزين ، ممن لم يمعنوا النظر ، فليس الأمر كذلك ، إذ «ما كل مائع ماء ، ولاكل سقف سماء ، ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله »[1] بل :

للحـــرب أقـــوام لهـــا خلقـــوا وللـــدواوين حـــساب وكتـــاب

وقد فجع المقلدون المنبهرون بكل غريب دخيل على هذه الأمة في السنين الأخيرة بهذيان «روجيه غارودي» وأفكاره النشاز التي صرح بها في وسائل الإعلام ، وكانوا قد رفعوه إلى مقام المنظرين للإسلام ، ولو وضعوا الرجل في مقامه ، لعرف قدره ، ووقف عنده .

ونحن لا نغفل من حسابنا مكر الدوائر الصهيونية به ، واستعداءها القضاء الفرنسي عليه ، لأنه من المفكرين الأحرار ، الذين فضحوا دسائس الصهاينة وأكاذيبهم التاريخية في كتابه «الأساطير المؤسسة لسياسة إسرائيل» لكن ذلك كله لا يشفع له في الجرأة على أحكام الإسلام .

فإن إحسانه هناك ، لا يسوغ أن نغضي عن إساءته هنا ، ودخوله فيما كان في غنى عنه من حشر نفسه في مضايق لا يحسن الكلام فيها ، من إعادة النظر في أمر العبادات ، ومراجعة أوقات الصلوات ، واختياره رأي الشيعة في أنها ثلاثة أوقات وخمس صلوات ، ونحو ذلك ، مما استقر إجماع المسلمين على خلافه .

فعدم التمييز هذا أوقع كثيرا من المتطفلين على التراث الإسلامي في الأغاليط

---

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور للثعالبي : ٤/ ٣٣٣.

والأوهام ، ومنهم قوم من جهلة العلمانيين «كمحمود إسماعيل ، وحسن حنفي ، وأبي رية ، ومحمد شحرور ، ومحمد أحمد خلف الله ، وعلي عبد الرزاق ، ومحمد سعيد العشماوي ، وفرج فودة ، وحامد نصر أبو زيد» وغيرهم ، ممن حشروا القرآن والسنة ضمن دائرة التراث ، ووضعوا الكل تحت مجهر النقد ، بموازين عقيمة تلقفوها عن المستشرقين كـ «لويس ماسينيون ، ومكسيم رودينسون ، وجولدزيهر» ممن حشو رؤوسهم بأضغاث أحلام ، وتشبعو بخرافات وأساطير عن الإسلام ، فصاروا يقطرون حقدا وسما في كتاباتهم عن الدين .

والحق أننا لو راجعنا ركام الغثاء المنشور اليوم باسم الفكر والتراث الإسلامي الذي قذفت به دور النشر التجارية من تراث الانحطاط لاضطررنا إلى إحراق نصفه حتى تستريح المكتبة الإسلامية من ثقله ، ويستريح العقل المسلم من عناء قراءته وحمله ، لما فيه من البلايا والرزايا التي أتعبت الطالب وضيعت المطلوب .

٣ـ النظر في مستقبليات الفكر الإسلامي :

فإن التراث يدرس اليوم للبناء عليه لا لاجترار حرفيات أهل زمانه ، لذلك وجب النظر في دراسة مستقبليات الإسلام ومتطلبات الأمة ، حتى لا نجتهد بعيدا عن حاجات عصرنا في المرحلة الراهنة .

وهذا يتطلب فقها للواقع ، ومواكبة لمسار التقدم العلمي والحضاري ، لدى الأمم المجاورة ، مع الإستفادة من التراث الإسلامي ، بالقدر الذي ينفعنا في واقعنا المعاصر . فقد أثر عن السلف «النهي عن الأغلوطات» [(١)] . وهي كما قال الأوزاعى «شداد المسائل وصعابها» وقال ابن يونس : «والأغلوطات ما لا يحتاج

(١) أخرجه أبو داود في السنن : ٣١٧١، وأحمد في المسند : ٢٢٥٧٦ ، و الدارمي في السنن : ١ / ٣٢٤، والطبراني في المعجم الكبير : ١٦٢٥٧، مرفوعا من حديث عبد الله بن سعد عن الصنابحى وهو مجهول ، وقال الساجي : «ضعفه أهل الشام» و لا يُعرف له متابع ، فهو حديث ضعيف لا يصح رفعه .

إليه من كيف وكيف» [١] .

والمراد بذلك النهي عن البحث والتنقير في المسائل التي يُغالَط بها العلماء ليزلوا فيها فيهيج بذلك الشر والفتنة .

قال المناوي : « الأغلوطات جمع أغلوطة كأعجوبة أي ما يغالط به العالم من المسائل المشكلة لتشوش فكره ويستزل ويستسقط رأيه لما فيه من إيذاء المسؤول ، وإظهار فضل السائل مع عدم نفعها في الدين ، قال الأوزاعي : « إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علما ، وكان أفاضل الصحابة إذا سئلوا عن شيء قالوا وقع؟ فإن قيل نعم أفتوا ، وإلا قالوا دعه حتى يقع » [٢] .

وقد انقسم الناس في هذا الباب إلى طوائف فذهب قوم من أتباع أهل الحديث إلى كراهة المسائل مطلقا وسد بابها ، حتى قل فهمهم وضمُر علمهم بالوقائع والنوازل ، وزلوا في معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فصار أكثرهم حامل فقه ليس بفقيه .

وتوسع طائفة من أهل الرأي في البحث عما لم يقع وأكثروا الخصومة والجدال في الدين ، حتى تولد عن ذلك أهواء وبغضاء مع ما اقترن بها من الغلو والمباهاة ، والتنقير عن الأغلوطات التي شغلت المسلمين عن واجب الوقت .

وتوسط فقهاء أهل الحديث وأئمة السلف فوجهوا هممهم إلى البحث عن معاني الكتاب والسنة وكلام السلف والنظر فيما ينفع الأمة عاجلا وآجلا دون إسراف في البحث عما لاينفع الأمة في دين ولا دنيا ، وقد كره أئمة السلف السؤال والفتوى عما ليس تحته عمل . وذلك دليل على ارتباط المسلمين «بفقه الواقع » لئلا يلهث الناس

(١) الإبانة الكبرى : لابن بطة : ١/ ٣٢٠.

(٢) فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي : ٦ / ٣٠١.

وراء السراب ، ويضيعوا جهودا فيما لا ينفع .

قال أبو بكر بن العربي «كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل عليهم ، أما بعد فقد أمن ذلك لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع،وإنه لمكروه إن لم يكن حراما إلا للعلماء ، فإنهم فرعوا ومهدوا ، فنفع الله من بعدهم بذلك ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم » (١) .

فقد جاء أعرابي في زمن عمر إلى المدينة يسأل عن غرائب العلم ، يُقال له صبيغ بن عِسل التميمي من بني يربوع ، فصرفه عمر عن ذلك ودعا بعراجين النخل وأدبه ، وأمر ألا يجالسه أحد من المسلمين .

فعن نافع مولى ابن عمر : «أن صبيغا العراقى جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر ، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال : أين الرجل؟ قال : فى الرحل . قال عمر : أبصر أيكون ذهب فتصيبك منى به العقوبة الموجعة . فأتاه به فقال عمر : تسأل محدثة . فأرسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة ، ثم تركه حتى برأ ، ثم عاد له ثم تركه حتى برأ ، فدعا به ليعود له ، قال فقال صبيغ : إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا ، وإن كنت تريد أن تداوينى فقد والله برأت ، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : ألَّا يجالسه أحد من المسلمين . فاشتد ذلك على الرجل ، فكتب أبو موسى إلى عمر : أن قد حسنت هيئته ، فكتب عمر أن إئذن للناس بمجالسته» (٢) .

وقد نفعه الله بذلك العلاج العمري سنين طويلة ، إذ لما خرجت الخوارج ودعوه قال : «أدبني العبد الصالح» ، فعن معمر قال : «خرجت الحرورية ، فقيل لصبيغ :

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر : ١٣ / ٢٦٣.

(٢) أخرجه الدارمي في السنن : ١٥٠ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق : ٢٣/ ٤١٠.

إنه قد خرج قوم يقولون كذا وكذا ، قال : هيهات قد نفعني الله بموعظة الرجل الصالح ، قال وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على رجليه » [(١)] .

ولو تفحصنا اليوم ما اشتغل الناس به زمنا من النظريات والمذاهب والأفكار البالية ، التي ملأت كتب التراث وأثقلت رفوف الخزائن ، لظهر لنا أنه ينبغي التخلص من جزء كبير من هذا الغثاء وإزاحته من المكتبة الإسلامية ، غير مأسوف عليه ، لأنه صار عبئا يشغل مساحة في الذهن المسلم ، ويشوش على صافي المعرفة ، ويعرقل حركة الأمة نحو مستقبل حضاري كفيل بالنهوض بها بين الأمم .

وقبل الحديث عن معالم المنهج في قراءة التراث ، يجدر بنا التعريج على أشهر الانحرافات المنهجية التي وقعت لدراسي التراث ، والتنبيه على مكامن الخلل فيها ، للبناء عليها في قراءة علمية للتراث الإسلامي كفيلة بالنهوض بهذه الأمة ، وغربلة ما لديها من رصيد فكري ، يغنيها عن التسول والإستجداء الفكري لدى أمم الأرض .

*****

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف : ٢٠٩٠٧.

الفصل الثاني

انحرافات منهجية في دراسة التراث الإسلامي

لا يخفى على أحد ما علق بالمعرفة الإسلامية خلال مراحل التاريخ من انحرافات منهجية في البحث والنظر والتلقي، والنقد والتمحيص، والخلاف والمواجهة، شغلت المسلمين زمنا عن الاجتهاد، والإبداع والتفكير العلمي، إلا ثلة باقية من العلماء لم يخل منهم عصر في الاجتهاد والنظر، كانوا بمنأى عن كل ذلك .

وقد ظلت تلك الانحرافات نقطا مظلمة في تاريخ المعرفة الإسلامية، حجبت محاسن العلم ومكامن القوة في الفكر الإسلامي . وبمعرفة أشهر مظاهر هذه الانحرافات تتضح أهمية تأصيل الفكر الإسلامي وإعادة النظر في مناهج قراءة التراث، ويمكن حصر هذه الآفات والانحرافات المنهجية في ما يلي :

١ـ الجمود والتقليد وتقديس آراء الرجال :

أصيب كثير من المتأخرين بداء الغلو في تمجيد التراث والجمود على القديم، ورفض التسليم بأي جديد ينزع إليه من علت همته للاجتهاد والإبداع، وقد تفشى بينهم ذلك بسبب الجهل وسوء الفهم وفساد التدبير في تعاملهم مع التراث، حيث نظروا إلى ذخائر التراث الإسلامي كأنها جثث ميتة محنطة لاينبغي أن تمس بتبديل أو تغيير، وعدوا كل جديد وارد عليها دخيلا مفسدا لأصالة الأمة وتراثها .

وهذا نظر سقيم، ومسلك فاسد عقيم، حجر قرائح العلماء والمتعلمين وكبلها عن الإبداع، في عصر طغى فيه الجمود والتقليد، حتى عدوا الخروج عن تصانيف الماضين مروقا وعقوقا، وتجلى ذلك في بداية عصر النهضة لدى بعض الجامدين الذين تمسكوا بالعتيق وحرصوا عليه من كل ما يغيره أو يطوره حرص بخيل ضنين

ضاع خاتمه في التراب .

فلم يكن شيء أضر على المسلمين في التفكير والنظر والاجتهاد من قولهم « ما ترك الأول للآخر » حيث نشأ فيهم نابتة من المقلدة نظروا إلى علوم الماضين نظرة تعظيم وتقديس ، وسلموا الزمام ، وتركوا الاعتراض ، فماتت الهمم بذلك ، ودب فيهم التقليد ، وقصروا عن النظر ، حتى ظنوا أنه ما ترك الأول للآخر شيئا للاستدراك أو الإبداع والتعقب ، وما الأمر سوى خيال شاعر ، صدق فيهم لتأخر القرائح الإسلامية ، وركونها إلى الجمود ، كما قال الشاعر :

لم يدع من مضى للذي غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

قال الشاطبي : « المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد ، وتكلم في المسائل ، ولم يرتبط إلى إمامهم ، رموه بالنكير ، وفرقوا إليه سهام النقد ، وعدوه من الخارجين عن الجادة ، المفارقين للجماعة» [1] .

ولو تبصروا لعلموا أن ذلك تحجير لواسع فضل الله ، الذي لم يؤقت بزمان أو مكان ، فكم ترك الأول للآخر ، وليس المتقدم أولى به من الآخر،«فإن الناس أبناء ما يحسنون» كما قال علي رضي الله عنه .

قال ابن بسام الأندلسي : « وكم من نكتة أغفلتها الخطباء ، ورب متردم غادرته الشعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن يُنكر ، تقدم به الزمان أو تأخر ، ولحى الله قولهم : الفضل للمتقدم ، فكم دفن من إحسان ، وأخمل من فلان ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين ، لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير» [2] .

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة : ٢/ ٥٠٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني : ١/ ٥.

فإن الفضائل والعلوم لاتختص بزمان أو مكان ، ولئن كان زمان السلف أسعد الأزمان بغايات العلم والفضل ، فإن الله لم يخل عصرا من منته التي لا تنقضي ، ولا تختص بقوم دون آخرين .

قال جمال الدين القاسمي : «والعلوم منح إلهية ، ومواهب لدنية صمدانية ، فغير مستعبد أن يُدخر لبعض المتأخرين ما لم يدخر لبعض المتقدمين ، فلا تغتر بقول القائل : ما ترك الأول للآخر فإنما يُستجاد الشيء ويسترذل ، لجودته ورداءته في ذاته ، لا لقدمه وحدوثه ، ويقال : ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم : ما ترك الأول شيئا ، لأنه يقطع الآمال عن العلم ، ويحمل على التقاعد عن التعلم ، فيقتصر الآخر على ما قدم الأول من الظاهر ، وهو خطر عظيم ، وقول سقيم ، فالأوائل وأن فازوا باستخراج الأصول وتمهيدها ، فالأواخر فازوا بتفريع الأصول وتشييدها» [1] ، بل ربما يأتي المتأخر بما لم يدركه المتقدم ، كما قال المعري :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

ينافس أمسي في يومي تشرفا وتحسد أسحاري على الأصائل

قال ابن عبد ربه الأندلسي : «إني رأيت آخر كل طبقة ، واضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل أدب ، أهذب لفظا ، وأسهل لغة ، وأحكم مذاهب ، وأوضح طريقة من الأول ، لأنه ناقض متعقب ، والأول بادئ متقدم » [2] .

وقد تجلى هذا الجمود والتقليد في عكوف الناس على تراث المتقدمين حفظا واختصارا وتهذيبا ، وجمودا على ألفاظهم ، حتى عدوا الخروج عليها وإبداع ما سواها بدعة ومروقا ، لا يلجه إلا كل معترض لئيم ، أو أفاك أثيم ، خبثت سريرته ، وفسدت طويته ، فشاع بينهم التسليم ، والوقوف عند تصانيف الماضين .

---

(١) قواعد التحديث : ٣٧.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٥٠١.

فبعد ظهور مختصر ابن الحاجب ، ومختصر خليل ، والهداية للمرغيناني في الفقه ، وحدود ابن عرفة في التعاريف ، وجوهرة التوحيد للباجورى في أصول الدين ، وألفية ابن مالك في النحو ، ونحوها لا تكاد تجد أحدا من المقلدين سمت نفسه ، أو علت همته للاستدراك على هذه المختصرات و تصحيح أوهامها ، بل لا تجد إلا مقدسا معظما لأصحابها ، معترفا بالعجز والقصور عن إدراك معانيها ، وكأنها الحق الذي لا يضام ، وحمى الشرع الذي لا يرام .

فحق فيهم قول الأصبهاني في أطباق الذهب : « ما المقلد إلا جمل محشوش ، له عمل مخشوش ، يقنع بظواهر الكلمات ، ولا يعرف النور من الظلمات ، يركض خيول الخيال في ضلال الضلال ، شغله نقل النقل عن نخبة العقل ، وأقنعه رواية الرواية ، عند دُر الدراية ، يروي في الدين عن شيخ هِمٍّ ، كمن يقود الأعمى في ليل مدلهم » [1] .

ومن نماذج تقديس كلام الرجال قول ابن الرصاع في مقدمة شرحه لحدود ابن عرفة ت ٨٠٣ هـ : « أما بعد ، فإنه لما سبقت منة الله تعالى إلى ، وأظهر فضله سبحانه على بمحبة شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام الذي افتخرت به أمة النبي ﷺ الشيخ الولي العالم الأعلم الصالح الزكي ، القدوة الأسوة ، السني السني ، العارف على التحقيق ، الهادي إلى الطريق ، الدال على التدقيق ، صاحب السعد والسعود ، اليمن والتوفيق نهاية العقول ، في المنقول والمعقول ، في وقتنا وقبل وقتنا ، بقية الراسخين من ساداتنا ، آخر المتعبدين من سلفنا ، سيدنا ومولانا وبركتنا أبي عبد الله محمد بن عرفة ، وشاهدنا كتبه جامعة مانعة ، شافية وافية ، المبرز من فقهاء الزمان من يفك رموزها ، ويفهم إشارتها ، وكل ضعيف عقل ، خبيث سريرة ، وكبير جهل ، إذا ربت نفسه الخبيثة ، علا وغلا ، فيعترض بالاعتراض للعطب والبلا حفظ الله قلوبنا ، وملأها بمحبة ساداتنا ،

(١) قواعد التحديث للقاسمي : ٣٦٧.

الذين فتحوا لنا الأبواب ، وهدانا بهم إلى الحق والصواب »[١] .

فالفقيه عند القوم هو المقلد الذي حفظ الأقوال قويها وضعيفها بشقشقة شدقية ، وهذها كهذِ الأسمار بقوة لحييه ، وبذلك ابتليت المعرفة الإسلامية بهؤلاء الجامدين ، الذين قتلوا في الناشئة روح الإبداع ، وصار صاحب الحواشي ، المولع بالألغاز والأحاجي ، هو الإمام المختار ، والمفكر النظار ، الذي يشار إليه بالبنان ، ولا يقعقع له بالشنان .

وقد امتد نفس الجمود وإطراح الإبداع والتجديد حتى عم المسائل العلمية والإختراعات الحديثة ، التي ظنها الجامدون من قبيل الغارة على التراث ، فقل الإنتاج العلمي ونشأ في بلاد الإسلام أجيال من الأميين وأنصاف المتعلمين ، وساد جو من الركود العلمي الذي مس آحاد العلماء ، وهم يومئذ سلعة نادرة أعز من بيض الأنوق .

وبذلك تقاصرت الهمم ووقف المقلدون عند آراء الرجال ، «وأصبحت أقوال هؤلاء الأئمة بمنزلة نصوص الكتاب والسنة لا يعدونها ، فنشأت سدود بين الأمة وبين نصوص الشريعة ، وأصبحت الشريعة هي نصوص الفقهاء وأقوالهم »[٢] .

وحيل بين الأمة وبين علوم السلف وآثارهم ، نتيجة هذا الجمود والتقليد المذهبي الذي أضعف المعرفة الإسلامية زمنا ، وكان له أثر سيء في جمود القرائح وانحسار المد المعرفي للمسلمين بين الأمم ، وقتل الإبداع العلمي والحضاري في الأمة ، والله المستعان .

٢ ـ تأثير الأهواء في المعرفة الإسلامية :

كان السلف مستغنين بما كان لهم من صحيح الأثر وقوى النظر ، عما ظهر

---

(١) شرح حدود ابن عرفة لابن الرصاع :١٤.

(٢) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : ٢/ ٥.

بعدهم ، من زخارف المحدثات ، التي كانت أمام علمهم : ﴿ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور:٣٩] .

فقد كانوا أغزر الناس علما ، وأقلهم حشوا وتكلفا ، وانعكس الأمر عند المتأخرين من أهل الأهواء ، الذين انحرفوا عن ركابهم ، وزاغوا عن محجتهم ، وتجارت بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، فأحدثوا للناس جهالات سموها علوما ، وليس لها من قواعد العلم نقير ولا قطمير سوى زخارف القول ، وتنميق الألفاظ والرسوم .

ومنها علم الكلام الذي أحدثه المتكلمون وخلطوه بأمشاج الفلسفة وعلم المنطق ، بدعوى الدفاع عن العقيدة وصيانتها من شبه الخصوم ، وكذلك التصوف الفلسفي الذي أقحم في تاريخ الزهد باسم التربية والسلوك إلى الله ، ناهيك عن دسائس المبطلين في تاريخ الفكر مما اقتبسوه من تراث الأمم المجاورة .

وهذه المحدثات كانت رقاعات فكر ، وفضول جهل ، حدثت لما انصرف البطالون عن رعاية السنن والآثار ، والتمسك بأصول الشريعة ، و تركوا الاشتغال بفقه سنن الكون والحياة ، وغفلوا عن أسباب الرقي ، واشتغلوا بالظنون والأوهام ، فضلوا عن سواء السبيل .

كما قال عمر رضي الله عنه : «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرأي ، فضلوا وأضلوا» [١] .

وقال الإمام مالك : «ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء ، ولا قل فيهم العلماء إلا ظهر فيهم الجفاء» [٢] .

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي : ١٩٠، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي : ٤٧.

(٢) ذم الكلام لشيخ الإسلام إسماعيل الهروي : ١٧٤.

موقف السلف من هذه الأهواء المحدثات :

وقد رد نقاد المعرفة من السلف هذه المحدثات التي سماها أصحابها علوما ، ورأوها دخيلة على التراث الإسلامي ، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنظر في دلائل الكتاب والسنة ، وتتبع آثار السلف ، والاشتغال بفقه سنن الله في الكون وعمارة الأرض ، فلم يعدوا شيئا من هذه الأهواء من علوم الإسلام . ولم ينخدعوا بزخارف المتكلمين والمتصوفة والفلاسفة بل شددوا النكير على أصحابها .

وأثر عنهم في ذلك عبارات شديدة في رد هذه الأهواء ، قال أبو يوسف : «العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، و إذا صار الرجل رأسا في الكلام قيل زنديق» [(١)] .

وقال الشافعي : «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر ، وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام» وفي رواية عنه : «مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط وتشريدهم في البلاد» [(٢)] .

كما ردوا زخارف المتصوفة ووساوسهم الدخيلة على منهاج السنة في التربية والسلوك ، ولذلك قال الشافعي : «لو أن رجلا تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق» [(٣)] .

ونقل الونشريسي عن الإمام مالك أنه «سئل عن قوم بنصيبين يقال لهم الصوفية ، يذكرون الله كثيرا فإن شبعوا قاموا يرقصون ، فقال للسائل : أصبيان هم ؟ قال : لا قال : أمجانين هم ؟ قال لا ، قوم مشايخ وغير ذلك عقلاء ، فقال مالك : ماسمعنا

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي :٧/ ٦١

(٢) سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٢٩.

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي : ٤١٥.

أحدا من أهل الإسلام فعل هذا، إلا أن يكون مجنونا أو صبيا »[١].

وأما الفلسفة والمنطق فكانا في نظرهم سرابا لا شيء فيه، ومزنا لا ماء فيه. قال الذهبي في بيان زغل العلم والطلب: « وما دواء هذه العلوم وعلماءها والعاملين بها علما وعقدا إلا الحريق والإعدام، إذ الدين مازال كاملا حتى عربت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون، فلو أعدمت كان فتحا مبينا »[٢].

فقد كان أهل البدع أضر على الأمة من أهل المعاصي، لما نفثوا في المعرفة الإسلامية من سموم، وأغاروا على النصوص، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وفتحوا على الأمة بذلك باب معرة وغواية، فآلت البدع مدرجة إلى الضلال، ومدخلا إلى اتباع الهوى، ومتولجا إلى الحكم بالمتشابه، وتحريف أحكام الشريعة عن مواضعها.

ومع ذلك ولع بها خلق من العلماء والعوام، وصارت بلاء عاما في العصور، شغلت المسلمين بالجدل التافه، وضيعت عليهم أزمانا أعمارا نفيسة كان أولى أن تصرف في العلوم النافعة.

ولازال بعض المفتونين يعد هذه الجهالات من التراث الأصيل الذي ينبغي المحافظة عليه، ويتعب نفسه في فهم ألغازها وأحاجيها، ويضيع أعمار طلاب العلم في دراستها للحجة لا للفرجة، متكلفا كل صعب وذلول لإثبات أنها لب الفكر الإسلامي وقوامه، وأنه بغيرها لا يرجى للمسلمين رقي ولا تقدم في معرفة دينهم.

ومن هؤلاء أساتذة المنطق والفلسفة وحماة علم الكلام والتصوف في بلاد الإسلام أمثال طه عبد الرحمن، ومحمد سعيد رمضان البوطي، وطيب تزيني،

---

(١) المعيار المغرب للونشريسي: ١١/ ١٦٣.

(٢) زغل العلم والطلب للذهبي: ٤٤.

وعبد الرحمن بدوي ، وأمثالهم ، مع أنها كانت من أخطر أسباب البلاء والتخلف الذي باض وفرخ في ديار المسلمين .

٣ـ ضعف البصر بصناعة نقد الآثار والأفكار :

كان نقد الأخبار والأفكار ومذاهب الطوائف والرجال علما قائما عند المتقدمين ، نافقة سوقه بين أهل الحديث ، حراس دين الله في الأرض ، ممن ضربوا بسهم وافر في رد الأباطيل والأهواء المحدثة ، فلم يرُج في زمانهم الدخيل من الأفكار ، أو الزائف من الآثار .

بل كانوا كلما علت رؤوس أهل البدع في أيامهم ، قمعوها بالعلم ، فصانوا المعرفة الإسلامية من الدس والعبث ، حتى قال الشافعي «لولا أهل المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر» [(١)] .

ومن نفيس ما قاله الذهبي في ذلك «ونحن لا ندعي العصمة في أئمة الجرح والتعديل لكن هم أكثر الناس صوابا وأندرهم خطأ وأشدهم إنصافا وأبعدهم عن التحامل ، وإذا اتفقوا على تعديل أو جرح فتمسك به ، واعضض عليه بناجذيك ، ولا تتجاوزه فتندم ، ومن شذ منهم فلا عبرة به ، فخل عنك العناء وأعط القوس باريها فو الله لولا الحفاظ الأكابر لخطبت الزنادقة على المنابر ، ولئن خطب خاطب من أهل البدع فإنما هو بسيف الإسلام وبلسان الشريعة وبجاه السنه وبإظهار متابعة ما جاء به الرسول ﷺ فنعوذ بالله من الخذلان» [(٢)] .

فقد كانت أعلام السنة منشورة ، وألوية أهل البدع ورؤوسهم منكسة ، أيام كان أهل الحديث أمة ظاهرة ، وكانت رهافة الحس إزاء البدعة حاضرة ، مع نباهة الفكر والتيقظ ، والولع بهذا الشأن بين أهل العلم . فلما تناقص هذا العلم وتضاءل ،

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٧٠.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي : ١١/ ٨٢.

خست صناعته بتناقص علمائه ، فاستشرت الأهواء بين سبايا المذاهب ، وعلا شأن الرؤوس الجهال ، ونفقت بضائعهم الكاسدة بين العوام ، وحلت بلادة الحس والتقليد محل النقد والتمحيص ، وشاع بينهم «سلم تسلم ، ما ترك الأول للآخر» وجرى على ألسنة الصوفية «كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي الغاسل» ، و«من قال لشيخه لم؟ وكيف؟ لايفلح » .

وهي أفكار رزئ بها الفكر الإسلامي من لدن شيوخ المتصوفة وأحبار الشيعة ، الذين لقنوا الأتباع والمريدين تقليد الرجال ولقنوهم رسوم «التقديس والتسليم» وأجلسوهم على بساط الجهل ، فكانوا أضل من الأنعام ، حين عطلوا نعمة العقل والنظر ،كما قال الشاعر :

وإذا كان الغراب دليل قوم يمر بهم على جيف الكلاب

وبذلك ضعُف النقد ، وأُعدم العقل ، وحل محله ذوق الشيخ وهوى المريد ، ومال الناس إلى الاسترواح في مناخ البطالة ، والتقليد ، وانهمك المثقفون بعدهم في العصور المتأخرة يبتلعون ما يُلقى إليهم من غربان الفكر الناشز عن أصول الملة ، ويقولون هل من مزيد ، إذ لم يشف غليلهم ما خلفته أجيال المقلدين من أوراق شاحبة في أزمنة الانحطاط .

وقد دخل على التراث من هذه الجهة الغث المهين ، والمزلزل العليل ، في العلوم النقلية كالتفسير ، والحديث ، والتاريخ ، وأصول الدين ، فدونك تفسير أبي عبد الرحمن السلمي ، وعرائس المجالس ، والتفسير للثعلبي ، وهي كتب مشحونة بالإسرائيليات ، وبستان العارفين لأبي الليث السمرقندي ، واللمع لأبي نصر السراج الذي جمع فيه أكاذيب الصوفية في الرقائق ، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب زورا لابن قتيبة ، وإحياء علوم الدين للغزالي الذي خلط فيه عملا صالحا وآخر سيئا ، وجمع من الكلام المرذول ما تقشعر له القلوب ، وفصوص الحكم ،

والفتوحات الربانية ، وعنقاء مغرب لابن عربي الحاتمي ، وخلع النعلين لابن قسي الأندلسي ، وشمس المعارف الكبرى لأحمد بن علي البوني ، وهي كتب جمعت إلى جانب طلاسم الصوفية رسوم الدجل والشعوذة ، التي أزرت بالعقل المسلم وأركسته في الحضيض .

وقس على هذه الكتب مصنفات الشيعة مثل الكافي للكليني ، وبحار الأنوار للمجلسي ، وتفسير الطبرسي ، وهي مصنفات مليئة بالكذب على الصحابة ولعن السلف ، وتحريف التاريخ ، والكلام المرذول في الفكر والعقيدة ، وكتب حماة الدجل والخرافة ، مثل كتاب طبقات الصوفية ، والأنوار القدسية للشعراني ، وشواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ، ورماح الرحيم لأحمد التيجاني ، والإبريز من كلام عبد العزيز الدباغ .

فهذه كتب أورثت جهالات ومحدثات وشبه وأباطيل في المعرفة الإسلامية ، انتفخت بها كتب التراث ، وصارت رزءا للعقل الإسلامي ، الذي كل وتعب من حمل أوزارها ، والاكتواء بنار بلائها ، بما أحدثته في الأمة من انحراف وتفرق ، وتخلف عيالها عن الاشتغال بالعلوم النافعة ، ومغالبة الأمم في البناء الحضاري وعمارة الأرض .

فصرنا نرى من بين من نظم نفسه في سلك المصلحين ودعاة التغيير بالمغرب من يستلهم تراث الخرافة ليقدمه مشروعا لأبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة في الإصلاح،أمثال الشيخ عبد السلام ياسين الذي أغرم بمشروع المهدي بن تومرت ، والمهدي السوداني ، والخميني الرافضي ، فتراه يقدم هؤلاء على أنهم قادة مصلحون ، غافلا عما حبل به تراثهم الفكري من البلايا التي جلبت شرورا على الأمة .

فيقول عن المهدي السوداني زعيم الثورة السودانية ت ١٣٠٢هـ : «وكان الكشفُ والكرامة والغيبُ سدى قومة المهدي السوداني ولُحمتها ، فإنَّه بعد أن

سلك طريقة القوم على يد شيخه محمد شريف القادري السمّاني مَشْرَباً ، جمع الناس حوله حتى قوِيَتْ شَوْكَتُهُ ودعا الناس إلى قتال الإنجليز . . وكان هذا الـ«محمد بن عبد الله» نموذجا للقائم «المهدي» ، قال المهدي السوداني : «أتانى من الحضرتين ، النبوية وحضرة الأقطاب ، سيفٌ . وقد أُعْلِمْتُ أنه لا يُنْصَر على من معه أحد ، ومن أتانا بعداوةٍ يأخذه الله إما بالخسف أو بالغَرَق» [١] .

وقال : «وقد جاءني في اليقظة سيدُ الوجود ﷺ ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام ، وأمسك بيدي ﷺ ، وأجلسني على كرسيِّه ، وقال لي : أنت المهدي المنتظر ومن شك في مهديتك فقد كفر» [٢] ، وقد نسب المهدي الى نفسه العصمة ، وكفَّر من شك في مهديته ، ورفع أربع ألوية في حروبه للأقطاب الأربعة : الجيلاني والرفاعي والدسوقي والبدوي .

ولم يخل عصر من أئمة أفذاذ يردون هذا الباطل ، وهم ثمالة باقية من ذوي البصر النافذ ، والحس الناقد لكل دخيل ، كأبي الحسين الملطي في كتابه «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» وابن تيمية في رسائله التي صارت مشرقا ومغربا ، والذهبي في تواريخه،وابن القيم في «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ، وابن الوزير في العواصم ، وغيرهم ، كما صنف بعض المعاصرين رسائل في بيان زغل هذه المؤلفات ، منهم الشيخ مشهور حسن سلمان في كتاب سماه «كتب حذر منها العلماء» [٣] .

ومن دون هؤلاء قوم غرقوا في ظلمات الجهل والتقليد ، وتكديس الغث من الفكر في صحفهم التي زاحموا بها كتب أهل العلم ، فصار التراث ركاما من الأسفار

---

(١) الفكر الصوفي في السودان ص ٩٩ ، الإحسان لعبد السلام ياسين : فصل المهدوية .

(٢) الإحسان لعبد السلام ياسين ، الفكر الصوفي في السودان ١٠٢ .

(٣) طبع في مجلدين بدار ابن حزم ١٩٩٥م.

اختلط فيها الحابل بالنابل ، في أزمنة كلال الأذهان وعمى الأبصار .

وكل ذلك جناه على أمتنا ضعف البصر ، وتعطيل نعمة النظر مما حجب معالم المنهج الإسلامي الأصيل في نخل التراث عن كثير من الناظرين ، ممن لم يكن لهم تمرس بهذا الشأن في قراءة التراث .

٤ـ الانبهار بتيار الحداثة والثورة على القديم :

ابتلي التراث الإسلامي بأيدي عابثة وعقول مغربة من أبناء هذه الأمة ، إثر ما ظهر في مطلع عصر النهضة من نزعات التغريب والحداثة ، التي بدأت تغزو العالم الإسلامي يومئذ ، حيث تأثر بها كثير من المثقفين العرب وبعض المنبهرين بمدنية الغرب من رجال الأزهر ، فارتموا في أحضانها ومرقوا عن الجادة ، بدافع الجموح والانبهار بالمدنية الغربية الحديثة .

وقد امتدت أيدي هؤلاء إلى التراث الإسلامي بمنطق التجني لا التبني ، وعملت على مسخه ، وتسخيره للإزراء بهذه الأمة وخدمة أعدائها ، وكان لجموح هؤلاء ردة فعل زادت من حدة تيار الجمود والتقليد ضد هجمة التغريب والحداثة على التراث .

وكان من أشهر هؤلاء محمد عبده ، الذي ثار على النظم القديمة بالأزهر بدافع من صديقه «اللورد كرومر» ، فهاجم من سماهم الجامدين من أصحاب العمائم بالأزهر ، وكان يقصد إلى إفراغه من محتواه ، وتقريب علماء الأزهر من اللادينيين ، وتليين مواقفهم لخدمة مصالح دعاة الحداثة من الإنجليز وتلاميذهم المخلصين في مصر كلطفي السيد وسعد زغلول وقاسم أمين .

وكذلك رفاعة الطهطاوي ، الذي درس في الأزهر شيئا من المتون والحواشي ، لم تغن عنه شيئا في فقه شرائع الإسلام ، فلما وجهه محمد علي باشا على رأس البعثة العلمية إلى فرنسا عام ١٨٢٦م انبهر بالفكر الغربي ، وافتتن بمدنية الفرنسيين ،

وتأثر بأفكار الثورة الفرنسية ، ونمط الحياة الغربية وصار يسبح بحمدها ، ويقدس مظاهرها ، فتزعم الدعوة إلى الوطنية والحرية والمساواة ، والسير سيرة الغربيين ، ولم يزل يعتذر في كتبه لسيئاتهم ويصورها لنا على أنها من محاسن الطبائع والعادات ، وإن كان لا يخفي امتعاضه من بعض عوائدهم المتحررة من قيود الدين والأخلاق . وقد كانت كتبه بذور الدعوة الارتماء في أحضان الحضارة الغربية ، ومنها «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» ، و«المرشد الأمين للبنات والبنين» ، أعجب فيها بحضارة الغرب ، ودعا إلى اتباع عوائدهم ونمط حياتهم .

وطه حسين ، الذي حفظ القرآن والتحق بالأزهر ، ثم تمرد على مناهج التعليم الأصيل ، وغادر الأزهر لما لحقه الخذلان ، وتأثر بمناهج المستشرقين وشبهاتهم حول التراث الإسلامي ، فألف كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ودعا فيه إلى التحرر من سلطان الدين ، وقال : «إن سبيل النهضة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب »[(١)] .

ثم سلامة موسى ت ١٩٥٨م رائد الاشتراكية المصرية ، والدعوة إلى العامية وأحد المغرقين في الانبهار بالحضارة الغربية ، القاصدين إلى سلخ الأمة عن دينها وحضارتها ، من خلال تعليم لاصلة له بالدين .

حيث يقول «كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها ، أريد تعليماً أوروبياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه ، وحكومة كحكومات أوروبا ، لا كحكومة

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٣٦.

هارون الرشيد والمأمون ، وأدباً أوروبيا أبطاله مصريون ، لا رجاله رجال الفتوحات العربية ، وثقافة أوروبية ، لا ثقافة الشرق ، ثقافة العبودية والذل والتوكل على الآلهة ، واللغة العامية ، لا العربية الفصحى لغة التقاليد العربية والقرآن ، والتفرنج في الأزياء لأنه يبعث فينا العقلية الأوروبية ، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهرةً ، فأنا كافرٌ بالشرق مؤمنٌ بالغرب ، لأنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، فإن الرابطة الدينية وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين» [١] .

وقد رد عليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ففل من غربه : وأركسه مع الأرذلين حيث قال : «رأيي في سلامة موسى معروف لم أغيره يوماً ، فإن هذا الرجل كالشجرة التي تُنبت مراً . . لا تحلو ولو زُرعت في تراب من السكر . . ما زال يتعرض لي منذ خمس عشر سنة . . كأنه يلقي على وحدي أنا تبعة حماية اللغة العربية وإظهار محاسنها وبيانها ، فهو عدوها وعدو دينها وقرآنها ونبيها ، كما هو عدو الفضيلة أين وجدت في إسلام أو نصرانية ، دعا هذا المخذول إلى استعمال العامية وهدم العربية ، فأخزاه الله على يدي ، ورأيته أنه لا في عيرها ولا نفيرها ، وأنه في الأدب حائط لا قيمة له ، وفي اللغة دعي لا موضع له ، وفي الرأي حقير لا شأن ، ثم قام هذا المفتون يدعو إلى الفرعونية ، ليقطع المسلمين عن تاريخهم ، وظن أنه في هذه الناحية ينسيهم لغتهم وقرآنهم وآدابهم ، ويشغلهم عنها بالمصرولوجيا ، والوطنولوجيا ، ثم أتم الله فضحه بما نشره أصحاب دار الهلال» [٢] .

وقال عنه أنوار الجندي : « لقد كانت كل كتابات سلامة موسى وأفكاره في حقيقتها جماع خيوط المخطط الماسوني التلمودي بباطله وهدمه وأخطاره ولقد

---

(١) اليوم وغدا، لسلامة موسى : ص ٥ ، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٢٩م .

(٢) رجال اختلف الرأي فيهم من أرسطو إلى لويس عوض : أنوار الجندي : ٢٢ .

عرف أن سلامة موسى كان يلفظ الإسلام والمسيحية معاً وهو الذي أضاف إلى قائمة الرسل والأنبياء فرويد وماركس ودارون ولينين» [(١)] .

ومن المفتونين بهذا المنحى الشيخ طنطاوي جوهري الذي انبهر ببريق الحضارة الغربية وراح يفسر القرآن وفق النظريات الفلسفية الحديثة ، وصار يوفق بين أوهام الغربيين ودلائل القرآن ، حيث قال عن نظرية داروين ، «إني قرأت تلك المحاورات ، وعلمت ما في تلك القضيات ، ولم أر شيئا يغاير الدين ، ولا فكرا يضر بعقائد المسلمين ، فالإسلام يأمر الناس باليقين ، و لا يقين إلا بالعلوم ، التي يسميها الناس عصرية ، وهي في الحقيقة علوم إسلامية » [(٢)] .

وقد تحولت هجمة العلمانيين ودعاة الحداثة اليوم للنيل من السنة النبوية ، بعد أن ضيعوا أعمارا في تحريف التراث وأعياهم أن ينالوا من القرآن شيئا ، وقد فاقوا المتقدمين جرأة وصلفا فصار هؤلاء لا يقيمون للسنة وزنا ، بل يرونها سيفا مسلطا على الرقاب يمنع المفكرين الأحرار من التجديد والإجتهاد .

كمحمد شحرور من سوريا ، المهندس المتخصص في البناء والهندسة المدنية ، الذي لم يرح رائحة العلم بالشريعة ، حيث قضى حياته العلمية بين الإتحاد السوفياتي ، وجامعة دبلن بإيرلاندا الشمالية ، وحصل على ماجستير في ميكانيكا التربة وهندسة التأسيس البنائي .

ثم تراه يتجرأ ويكتب عن تجديد الدين «دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع» ، و«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» يقول فيه : «هذا الكتاب يبحث في الدين الإسلامي بطريقة جديدة لا أظن أن أحدا سار على نهجها» [(٣)] .

---

(١) رجال اختلف الرأي فيهم، أنوار الجندي : ١٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث : ٢/ ٣٥٨.

(٣) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور : ٥٠٠، ط : دار الأهالي للنشر - سوريا ١٩٩٥ م.

و الأمر كما قال لأن هذه الجرأة على المقدسات ونقض الثوابت لم تُعهد عند العلماء السابقين ، وإنما تجرأ عليها أهل الأهواء .

ويقول : «أصبحت السنة بمفهومها التقليدي الفقهي هي السيف المسلط على رأس كل فكر حر نير نقدي ، وأصبح الظن عند المسلمين أن محمدا ﷺ حل كل مشاكل الناس من وفاته إلى أن تقوم الساعة» [(١)] .

وقد لاك في كتابه تخريفات من كلام المفتونين ببريق الحداثة ، كادعائه أن العورة : «ليس لها علاقة بالحلال والحرام لا من قريب ولا من بعيد ، لأن العورة جاءت من الحياء ، وهو رغبة الإنسان في إظهار شيء ما في جسده أو سلوكه ، وهذا الحياء نسبي وغير مطلق ، ويتبع الأعراف ، فالعورة متغيرة حسب الزمان والمكان» [(٢)] .

مع أن تاريخ الحضارات أثبت أن العُري وكشف العورات كان سمة ملازمة للتوحش والبدائية لدى الإنسان القديم ، وكلما تطور الإنسان وارتقى بهداية الوحي لازم الستر ، والأناقة في اللباس ، وهؤلاء يريدون العودة بالأمة إلى حياة التوحش وقوانين الغاب .

كما شن دعاة الحداثة من تلاميذ المستشرقين غارة على اللغة العربية بغية النيل من القرآن الكريم ومناهج التعليم الأصيل ، وقد تمثلت في حملة سلامة موسى وتلميذه لويس عوض الذى وصف لغة القرآن بأنها كالأغلال التى يجب تحطيمها لإحلال العامية محلها . . وبأنها لغة دخيلة وميتة دعا إلى هجرها ، وإحلال العامية المصرية محلها ، تقليدا للأتراك الكماليين الذين استبدلوا الحروف العربية بالحروف اللآتنية ، وترجموا القرآن إلى التركية ، ومنعوا الآذان بالعربية وحرموا تدريس العربية في المدارس والمعاهد .

---

(١) الكتاب والقرآن، محمد شحرور : ٥٦٩.

(٢) الكتاب والقرآن، محمد شحرور : ٦١١ ـ ٦١٢..

وقد جاءت دعوة هؤلاء استجابة لمخطط تغريبي قاده جيل من المستشرقين والمبشرين منهم « مولار ، وويلكوكس »وكان أبرز ما دعا إليه إبطال شكل النصوص وتغيره بالحروف اللينة ، وتسكين أواخر الكلمات ، وإحياء الكلمات العامية ، وإدخالها في صلب اللغة الفصحى والنزول باللغة المكتوبة إلى خطاب العامة ، لتمصير العربية نهائيا ، وقد رد عليه الرافعي بما يكشف زيف هذه الاتجاه .

وكان منهم كذلك إسكندر المعلوف الذي دعا إلى التحرر من قيود النحو وقواعد العربية ، وكان يقول : «ما أحرى أهل بلدنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس ، قد استنزفت أوقاتهم ، بل أصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدن » [1] ، وإثر ذلك نشر حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي	**وناديت قومي فاحتسبت حياتي**
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	**فهل سألوا الغواص عن صدفاتي**
أيطربكم من جانب الغرب ناعب	**ينادي بوأدي في ربيع حياتي**
وأسمع للكتاب في مصر ضجة	**فأعلم أن الصائحين نعاتي**

كما ولع بذلك أدباء المهجر أمثال جبران خليل جبران الذي دعا إلى الثورة على قوالب وقواعد العربية في مقال له تحت عنوان «لكم لغتكم ولي لغتي» مما قال فيه : «لكم منها جثث محنطة باردة جامدة ، ولي منها أجساد لا قيمة لها بذاتها بل كل قيمتها بالروح التي تحل فيها ، لكم منها مما قال سيبيويه وأبو الأسود وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المسلمين ، ولي منها ما تقوله الأم لطفلها ، والمحب لرفيقته ، والمتعبد لسكينة ليله» ، لكم أن تحتفظوا بما يبتر من أعضائها المختلة ، وأن تحتفظوا به في متاحف عقولكم ولي أن أحرق بالنار كل عضو ميت ،

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث : ٢/ ٣٦٣.

وكل مفصل مشلول ، لكم لغتكم عجوزا مقعدة ، ولي لغتي غارقة في بحر من أحلام شبابها إن خشب النعوش لا يزهر ولا يثمر ؛ أقول لكم إنما تحسبونه بيانا ليس بأكثر من عقم مزركش وسخافة مكلسة» [١] .

وسار على نفس المسلك خلق من المفتونين بالأدب الرومانسي المحلق في سماء الخيال كمخائيل نعيمة ، وإيليا أبي ماضي فظهرت عندهم مجموعة من عبارات الخيال السخيف التي تغرق القارئ في بحر من الأوهام بتشبيهات ممجوجة : كقولهم : «لموت البنفسجي ، وضوء القمر الطري ، والزهرة الفيلسوفة ، ووعظت على هيكل نعشي ، وخطبت على جماهير قلبي ، وأوقدت شموع جوانحي» .

وقد هاجم هؤلاء الأديب «سامي الكيالي» في مقال وصف فيه أدباء المهجر «بأنهم يصفعون لغة العرب التي يريدونها بلا قواعد وأن يكونوا أحرارا في أن ينحتوا لها من ملكاتهم قواعد متحركة ، وأكثرهم يأتون بغوامض تشبيهات ومجازات لا يفهمها جن ولا إنس» [٢] .

وقد شغف فريق منهم بالكتابة في الأدب الغربي وأطواره شغفا ملك عليهم حياتهم ، ترى لهم في كل يوم حديثا عن الدراما ، والرومانتيزم ، والمذهب الواقعي ، و أدباء الغرب كبرناردشو ، وأوسكار وايلد ، وترجنيف .

حتى أصبح ذلك مرض العصر ، وصار العلم بآدب الغربيين آية التبحر في الثقافة ، وأصبح الاستشهاد بقول أحدهم حجة مسكتة ينقطع بها جدل المختصمين [٣] ، وهم من أجهل الناس بلغة العرب وآدابها ، أعماهم بريق الحداثة

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث، ٢٧٥ عن بلاغة العرب في القرن العشرين : ٥١.

(٢) انظر مقال محمد عبد الله عنان «الأدب التافه يطغى على الأدب الرفيع» في ملحق السياسة الأدبى عدد ٢٤ شوال ١٣٥٠/ ٢٦ فبراير ١٩٣٢م.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي محمد حسين : ٢/ ٢٧٧.

عن أصول الأمة وحضارتها .

٥ـ ضمور الاهتمام بالعلوم الكونية :

أصيبت المعرفة الإسلامية في مجال العلم بالسنن الكونية وفقه فلسفة العلوم بضمور كبير في اهتمام العقل المسلم ، فكثير من المتعلمين لا يفقهون عن هذا المارد الحديث شيئا ذا بال ، حتى إنك لترى أكثر المشتغلين بالعلوم الشرعية والإنسانية غرباء بين أهل الأرض في معرفة أبجديات العلوم الكونية ، واستيعاب الظواهر العلمية الحديثة .

وقد ظهر لي أن أبناء أمتنا وحدهم من بين سكان العالم ابتلوا بهذه الغربة ، لانصرافهم عن سنن الإعداد وأسباب الرقي ، وعدم اكتراثهم بمواكبة التطور العلمي في العالم ، تراهم ينظرون إلى المخترعات العلمية الحديثة نظر مشدوه لا يعي ما يمور حوله منها ، ولا ما يخرج منها ، ولا يستطيع استيعاب آلياتها .

حيث يتخرج الطالب عندنا في العالم العربي بإجازة في شعب العلوم الشرعية أو الإنسانية ، وأحيانا العلوم التجريبية وهو بعد لا يحسن إصلاح دائرة كهرباء ، أو صنبور لا يمسك الماء ، بله أن يتطلع إلى تحليل الظواهر العلمية ، والتركيبات التكنلوجية في أبسط جهاز ، أو فهم وسائل الاتصال الإعلامي الحديث ، أو اقتحام لجج ذلك الميدان .

ومن المعلوم أن فقه سنن الكون والحياة من أولويات فروض الكفاية ، لأن العلم بنواميس الله في الكون سبيل العيش في عالم تحكمه سنن لا ترحم أحدا ، فالجهل بها خيانة للأمة ، والاشتغال عنها بقضايا اللغو والثرثرة أشد خزيا وجرما ، وأمتنا بدافع الانهزام السياسي أمام الأعداء فرطت وضيعت هذه السنن في الرقي المدني ، ولم تحقق فيها فروض الكفاية .

فلا زلنا نعيش في شتى مناحي الحياة تبعية مقيتة لغيرنا ، لا نملك قوت يومنا ولا

قرار أمتنا ، والأمة الجاهلة بهذه السنن لاتنعم بالحرية أبدا ، ولا تقوى على العيش في عالم يحكمه فراعنة الحضارة المادية الحديثة ، إلا أن تكون ذيلا وذليلا ، يجود عليها هذا بلباس يواري سوءات أهلها ، وآخر برغيف يسد جوعتها ، وثالث بسلاح كي تصون أرضها وعرضها ، وتصد عدوان أعدائها .

وتبقى هي كالميت الحي في شبحه ، بين أولئك المردة الذين ملكوا البر والبحر ، وتحكموا في استغلال خيرات الأرض ، بقوة الحديد والنار ، وسرعة البرق في الإنجاز والاتصال .

يقول الشيخ محمد الغزالي ~ : « إن فقه الكون والحياة فريضة أسبق من فرائض أخرى صنعها أصحاب ثقافات مغشوشة زعموها دينا وهي أبعد ما تكون عن الدين »[1] .

وقد كان سلف الأمة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين علماء موسوعيين أتقن كثير منهم حرفا وصنائع وعلوما ، فالشافعي رحمه الله كان فارسا ماهرا ، والإمام البخاري كان راميا لا تخطئ له رمية ، و الحافظ ابن حبان كان محدثا فقيها وعالما فلكيا ، والفخر الرازي كان عالما بالتفسير مدركا للسنن الكونية ، قام بتجارب في قوانين الدورة المائية ونزول الأمطار ، وكان يرتقي قمم الجبال ليميز نزول المطر أهو من السماء أم من السحاب الذي يحاذي سفوح الجبال .

وعُرف من علماء المسلمين في الطب والفيزياء والكيمياء والهندسة من كان لهم مشاركة في علوم اللغة ، وعلوم الشريعة ، كأبي بكر الرازي الطبيب ، وابن زهر عالم البصريات ، وابن النفيس ، والزهراوي ، وغيرهم ممن شغلت علومهم سمع الزمان ، وكان علماء أوروبا عالة عليها في عصور الاكتشافات العلمية .

---

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل : ٢٢.

ثم آل أمر الأمة إلى الانحدار بعد انفصال العلوم بعضها عن بعض ، وعكوف المتعلمين على شعب في المعرفة دون أخرى ، حيث عشش الجهل في ديار المسلمين،وحلت الخرافات والأساطير في عصور الانحطاط محل النظر في العلوم ، وأصيبت المعارف الكونية بضمور كبير ، وضحالة في اهتمام أبناء الأمة .

فإلى عهد قريب لم تكن بلدان العالم الإسلامي تستطيع تحصيل فروض الكفاية في علوم الحياة بتوفير الخبراء وأهل الصنائع ، الراسخين ، فكنت ترى مستشفيات المسلمين ومختبرات العلوم والجامعات ملآى بأطباء ومهندسين وأساتذة من اليهود والنصارى للاستعانة بهم في سد النقص الحاصل في هذه الفروض .

في حين ترى طائفة كبيرة من المسلمين من طلاب المعاهد العتيقة انكمشوا على الثمالة الباقية من علوم الخلف في المتون والحواشي والمختصرات التي بلغت حد الألغاز والأحاجي ، وعجزوا عن مسايرة الركب العلمي بعقولهم وأفهامهم ، وقصروا في استشراف ما يقع وراء البحار أو فهم قوانينه ، بل التسليم بإمكان حدوثه ونجاحه .

وقد ساهمت خطط المستعمرين في إبعاد هذه الطائفة من أبناء الأمة عن ميدان هذه العلوم ، بفصل معاهد التعليم الديني عن التعليم المدني ، وترك هذه الأمة من الناس تعيش على هامش الحياة وما يمور فيها ، وفق الاتفاقيات الدولية بين أعداء الإسلام التي تحرم نقل التكنولوجيا إلى بلاد المسلمين ، والعمل على تهجير العقول والأدمغة ، حتى لاتقوم لأمة الإسلام قائمة ، وتظل مجتمعات المسلمين أسواقا استهلاكية لبضائع أمريكا وأروبا ، خاضعة لجبروت إسرائيل أخزاها العلي القدير .

وقد وُجدت القابلية في أبناء الأمة لذلك ، فصار خلق منهم يعيشون في بروج من الخيال الخصيب ، ويتلهون بالتفنن في اختراع أسماء بلا مسميات في مفاهيم تحليل النصوص وقراءة ما وراء السطور ، وتحليل فلسفة الطرب الأندلسي ، وجمع

أنماط الأهازيج الشعبية ، وأشكال التهريج المسرحي ، وقتل الوقت في مجالس اللغو والبطالة ، وتضييع الأعمار في جهالات تضر وعلوم لاتنفع كالفنون التشكيلية التي ركبها البطالون ، وصاروا يضحكون بها على السذج ويوهمونهم أنها علوم تستحق عقد المؤتمرات وتبذير أموال الأمة في السخافات [١] .

ومما يدعو إلى الأسى أننا معشر المسلمين نعيش فوق أرض ملآى بالنفط والحديد والذهب الإبريز ، لا ندري ماتحتها ، حتى يأتي غيرنا ممن يملك مفاتيح الصناعة ، فينقب ويثير الأرض ليستخرج منها الغالي والنفيس ، ويرتفقه لينفق منه كيف يشاء ، ثم يرمي لنا الفضلات ، في أنفة وكبرياء ؛ لأن خلائق من أهل الجهل عندنا لا زالوا يتمجدون بفهم سيء لقول النبي ﷺ : « **نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نحسب** » [٢] . وينزلون الحديث في غير منازله .

حيث نبتت نابتة من الأميين في علوم الدين والدنيا يتوهمون أن الأمية صفة لازمة للأمة إلى آخر الدهر ، فتراهم يرفضون الحساب الفلكي والمعادلات الرياضية ، التي قام عليها إرسال المركبات إلى الفضاء ، وصناعة الأسلحة ، ووسائل الاتصال واختراق الآفاق بسرعة الضوء ، وبذلك بقينا ذيلا نستجدي الأمم الأخرى ، لاحظَّ لنا في صنع قرار أنفسنا ، بل إبداء الرأي في مصير غيرنا ، لضحالة حظنا في علوم صَفِرَت منها أيدينا ، فأمسينا كما قال الشاعر :

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولايُستأمرون وهم شهود

وعجيب أن بعض المسلمين اشتغلوا بنقاش قضايا لا هي من فروض الأعيان ، ولامن فروض الكفايات ، طولوا بها الشروح والحواشي ، فربما استغرق بعضهم في

---

(١) قال بعض الظرفاء : العلوم التشكيلية في حقيقتها انفصال عن القيمة ، وهذا ما يفسر ازدهارها في الغرب.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٨١٤، ومسلم في كتاب الصيام ١٠٨٠، وأحمد في المسند : ٢/ ١٢٩.

شرح باب المياه والطهارات سنين من الزمن ، وكان منهم شيخ ألمعي أزهري ظل يشرح مختصر خليل في الأزهر مدة أربعين سنة ، في كل سنة لا يكاد يخرج من باب المياه والطهارات!!

ويشتغل اليوم بعض أهل اللغو والجدل بتصنيف رسائل مثل : «عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن» يشغب بها على العوام ويلبسهم شبها كانوا في راحة منها ، بدعوى الدفاع عن العقيدة مع أن قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ، ناف للاحتمال الذي تطرق إلى حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعًا**» [(١)] .

ففيه إثبات صفة الصُّورة لله تعالى على ما يَلِيق بجلال وجْهه وعظيم سُلْطانه ، خلافًا لِمَن أنكَرَها من الجهميَّة وغيرهم ، وقد كان في ذلك كفاية وغنية لمن رام تجريد التوحيد ، دونما حاجة إلى كل ذلك الجدل واللغط الذي أعقب الخلاف في هذه المسألة .

قال ابن خزيمة : «توهَّم بعض من لم يتَحَرَّ العلم أنَّ قوله : «على صورته» يريد صورة الرحمن ، عزَّ ربُّنا وجلَّ عن أن يكون هذا معنى الخبر ، بل معنى قوله : «**خلَقَ آدم على صورته**» ، الهاء في هذا الموضع كناية عن اسْم المَضْروب والمشتوم ، أراد ﷺ أنَّ الله خلَقَ آدم على صورة هذا المضروب الذي أُمِر الضَّارب باجْتناب وَجْهِه بالضرب ، والذي قبح وجه» [(٢)] .

فتمحُّل تأويلها بصورة الرحمن هو بناء على شفا جرف هار بناء على حديث ضعيف عن ابن عمر مرفوعا : «**لا تقبِّحوا الوجْه؛ فإنَّ الله خلَقَ آدم على صورة**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١) ، وأحمد في المسند : ٧٨٢٤، و ابن حبان ٥٨٠٢ .

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة : (١ / ٨٤ ٨٥) .

الرَّحمن» [(١)] .

هو مجرد تعب ليس وراءه أرب سوى إثارة الفتن والتشويش واللغو ، وشغل المسلمين بما لا ينفعهم في دين ولا دنيا .

وقد كان الأولى بذل تلك الجهود في غير هذا المرمى ، فإن الفروق بين العلم الديني والعلم المدني تتيح للناظرين في علوم الكون مجالا رحبا واسعا ؛ لأن النظر في فقه الدين مسيج بضوابط وحدود لا ينبغي تجاوزها ، فهو علم منضبط أساسه الاتباع ، والعلم المدني علم منفتح مطلق أساسه الاختراع والإبداع ، وثمت آيات كثيرة تنعى على الجهال القاعدين عن النظر في سنن الله في الكون ، لكن الفهم الأعمى للأمية يسري في النفوس كالخمر في أبدان السكارى .

معاداة وسائل التمدن من آفات الجهل بعلوم الكون :

وقد حصل ذلك بسبب بُعد مناهج التعليم في بلاد المسلمين عن مواكبة ما يمور في العالم من تقدم علمي وحضاري ، وانصرافها إلى التقليد والاجترار ، وفصل التعليم الديني عن التعليم المدني . مما أثر سلبا على تحصيل الملكات النافعة للرقي والتقدم ، وفهم ما يجري من تجارب الشعوب والأمم في مظاهر التقدم العلمي والحضاري .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٥٢٩، وابن خزيمة في «التوحيد» ١/ ٨٥، والدارقطني في «الصفات» ٤٥، ٤٨، وغيرهم من طريق جَرِير عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عَطَاء، عن ابن عمر مرفوعا ، وهو حديث ضعيف وقد أعله ابن خزيمة بثلاث عِلَل :

الأُولى : أنَّ الثَّوري قد خالف الأعْمش في إسناده فأرسَلَه .

الثانية : عنعَنَةُ الأعمش، وهي مردودة ؛ لأنَّه مدلِّس ما لم يصرِّح بالسَّماع من حبيب بن أبي ثابت .

الثالثة : لا يُعلَم لحبيب بن أبي ثابت سَمَاعٌ من عطاء . كتاب «التوحيد» ١ / ٨٧ ، وزاد الألباني رحمه الله علَّة رابعة، وهي تغَيُّر جرير بن عبد الحميد وسُوء حِفْظه، وقد اضْطَربت روايته برواية لفْظ : «على صورته» عند ابن أبي عاصم ٥٣٠، واللالكائي ٧١٦.

وقد وقع ذلك لبعض الأكابر كالإمام المفسر شهاب الدين محمود الألوسي صاحب روح المعاني ت١٢٧٠ هـ الذي عبر عن موقفه مما وصلت إليه أوربا من اختراعات في مجال الملاحة البحرية والجوية تعبيرا ساذجا ينم عن جمود العقل المسلم يومئذ ، وبعده عن استيعاب ما يمور وراء البحار . فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء:٨١] ، يتعجب من تعنّي الإنجليز عقب الثورة الصناعية وكَلَفهم بصُنع طائرة تحلق مرتفعة في الهواء .

حيث يقول : «ومن العجب أن أهل لندن قد أتعبوا أنفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجري مرتفعة في الهواء إلى حيث شاءوا ، بأبخرة يحبسونها فيها ، اغترارا منهم بما ظهر منذ سنين من عمل سفينة تجري في الماء بواسطة آلات تحركها أبخرة فيها ، فلم يتم لهم ذلك ، ولا أظنه يتم حسب إرادتهم على الوجه الأكمل ، وأخبرني بعض المطلعين أنهم صنعوا سفينة تجري في الهواء ، لكن إلى حيث شاءوا ، بل إلى حيث ألقت رحلها» [١] ، وكأنه يتحدث عن الجمال حين تضع جُرانها على الأرض!!

وإنه ليشتد عجبك وأنت تطالع فتاوى علماء نجد أيام كان الملك عبد العزيز آل سعود يجاهد ويجالد في إقناعهم سنين من الزمن لإنشاء خطوط الهاتف ، وقد حضروا عنده سنة ١٣٣١ هـ ١٩٢١م حين علموا بعزمه على إنشاء محطات للتلغراف اللاسلكي بمدينة الرياض وغيرها من مدن نجد ، فقالوا : « ياطويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف ، وإدخاله إلى بلادنا ، فقال لهم : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، وليس هناك من دليل أو سنة رسول يمنع من إحداث اللآسلكي والسيارات » [٢] .

وقد عزم على مد خط هاتفي بين مكة وحداء والرغامة ، ثم عدل عنه خوفا من

---

(١) «روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني» ١٨/ ٧٨ .

(٢) المجددون في الإسلام لعبد المتعالي الصعيدي : ٥٦٨.

فتنة الجامدين يومئذ من طلبة العلم حيث كانوا يقطعون أسلاك الهاتف ، لأنها في زعمهم خيوط تسكنها الشياطين ، لا تشتغل حتى يذبح المتكلم عندها ذبيحة لغير الله ، فيحمل الشيطان كلامه وينقله إلى المستمع ، عبر أسلاك الهاتف ، وذلك شرك وبدعة ما أنزل الله بها من سلطان [١] .

ثم عقدوا مؤتمرا لأمور أنكروها في بلاد الحجاز وأصدروا فتوى بشأن تلك المسائل مطلعها : « أما بعد فقد ورد علينا من الإمام سلمه الله تعالى سؤال من بعض الإخوان عن مسائل تطلب منا الجواب عليها ، فأجبنا بما نصه : أما مسألة البرق ، فهو أمر حادث في آخر الزمان ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاما لأحد من أهل العلم فتوقفنا في مسألته ، ولا نقول على الله ورسول بغير علم ، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته» [٢] .

فعدل الأمير عن إنجاز ما عنَّ له بشأن هذا المخترع الجديد حتى يقتنع فقهاء نجد بذلك ، ويتأكدوا أنه عمل لا متولج للشياطين فيه!!

وقد حصل نحو ذلك في بلاد الشام عندما أُدخل التلغراف إلى حلب سنة ١٢٧٨هـ حيث قال كامل حسين الغزي : « وفي هذه السنة صار الشروع بتمديد السلك البرقي ، وكان بسطاء الناس إذا قيل لهم إنه ينقل الأخبار من بلد إلى أخرى مهما كانت بعيدة في لحظة كطرفة عين ، ينكروا ذلك ويقولوا : لا شك أن الذي ينقل هذا الخبر شيطان مارد منبث في التيل» [٣] .

وقد عجب الناس زمنا في مصر من اختراع المنطاد الذي عمله الفرنسيون ، واستنكر ذلك الجبرتي سنة ١٢١٣هـ فقال :« وفي يوم الأربعاء كتبوا أوراقا بتطيير

---

(١) المجددون في الإسلام بتصرف ٥٦٨.

(٢) المجددون في الإسلام ٥٧٠ والمراد بالبرق التلغراف اللاسلكي.

(٣) كامل حسين الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب : ٣/ ٣٩٠ .

طيارة ببركة الأزبكية مثل التي سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر ، وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ، ولساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة ، وقالوا : إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم !!» [(١)] .

وقد اشتد عجبي وأنا أتابع عرضا لأحدث ما أنتجته المؤسسات الإعلاميات من أجهزة الحاسب وبرامج «الوسائط المتعددة » ، وما يسره الله للناس بذلك من خدمات لا تقدر بثمن في مجال التعليم والبحث العلمي في العلوم الشرعية ، والعلوم الكونية وغيرها ، وكان ذلك في ملتقى علمي ضم جموعا من طلاب وأساتذة الدراسات الإسلامية وحملة القرآن ، فكنت أتفرس الوجوه فلا أرى إلا عيونا جاحظة تدور في محاجرها ، من شدة العجب والاستغراب ، لما يعرض أمامها من عجائب الدنيا ، في عالم استوعب خباياه صبيان المتعلمين في بلاد الغرب .

ولا يزال حال المسلمين اليوم كحالهم بالأمس ، من آثار الانفصام النكد في مناهج التعليم والمعرفة بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية ، مما كان ينشده أعداء الإسلام ، وقد تحقق ذلك فينا بسبب داء الغفلة وذل التبعية الذي عشش في ديارنا .

وزاد الطين بلة تدخل الإرادة السياسية والأنظمة الحاكمة في كثير من بلاد المسلمين لتكريس هذا الوضع ، حتى نظل أمة مهينة ، وذيلا وذليلا تابعة للأسياد! نأكل ما لا نزرع ، ونلبس ونركب ما لا نصنع ، بحيث لو قلنا لكل شيء ارجع من حيث أتيت لخشينا أن نمشي في الطرقات حفاة عراة نركب البغال والحمير ، ونستجدي قوتا من أمم الغرب ؛ لأننا لم نصنع شيئا بأيدينا ، وربما غُرلا كما ولدتنا أمهاتنا ، لأن أدوات الجراحة والختان نستوردها كذلك من غيرنا .

قال ابن المؤقت المراكشي : « وبالجملة فسنة الترقي هي سنة الله ، ولن تجد لسنة

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، للجبرتي ٢/ ٢٤٤ .

الله تبديلا ، وكلما خمدت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدلت في الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها ، فإن هبت للعمل ارتقت ، وإلا فلتنذر بالزوال من الوجود ، هاهي الأمم ارتقت من حولنا في جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة ، هاهم أغلب المسلمين في بقاع الأرض ليس لهم نصيب من الترقي إلا كسراب بقيعة»[١] .

وهذا لايليق بأمة ملأت سمع الزمان بحضارتها وعلومها ، وأكل من فتات موائدها علماء النصارى بجامعات المشرق والأندلس ، إبان العصور الزاهية للحضارة الإسلامية .

٦ ـ الاشتغال بالدجل والخرافة على حساب العلم :

الخرافة هي الحديث المستملح المكذوب ، و تقول العرب «حديث خرافة» ، وخرافة رجل من بني عذرة ، أو من جهينة ، زعموا أنه استهوته الجن واختطفته ، ثم رجع إلى قومه ، فكان يحدث بأحاديث يعجب منها الناس فكذبوه ، فجرى على ألسنة الناس ، واستعمل في كل خبر غريب لا يُصدق كما قال الشاعر المستهتر ديك الجن :

أأترك لذة الصهباء عمداً لما وعدوه من لبنٍ وخمر
حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ حديث خرافةٍ يا أم عمرو[٢]

ومن ذلك ما روي من أساطير الجاهلية : « أن تأبط شراً قتل غولاً وعاد إلى قومه وقد تأبط رأسه فقيل تأبط شراً»[٣] . وما روي : «أن عليا ﷺ صارع الجن في بئر ذات العلم ، وأنه اقتلع باب خيبر لوحده» .

---

(١) الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية لابن المؤقت المراكشي : ١٩ .

(٢) محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني : ٢ / ٣ ، ومجمع الأمثال للميداني : ١/ ٨٥ .

(٣) محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني : ٢/ ١٠٤.

وقد نشأت نابتة من بني جلدتنا ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا من مشايخ الدجل وأحبار السوء ، ولعوا بإحياء الأساطير ، ودين الخرافة ، لإشغال المسلمين اليوم عن واجب الحال ، وصرفهم عن واجبات ثقال ، يصبون الزيت في كانون خمدت ناره منذ أمد ليشتعل من جديد ، ويمعنون في شغل الناس بتفاهات الأئمة الغائبين ، وترهات متصوفة الأرزاق المجانين ، في سنوات عجاف يأكل فيها المسلم رغيفه من موائد الغرب ، ومساعدات أمريكا ، ويستجدي المنظمات الصليبية التي تهدف إلى سلخ المسلمين عن دينهم .

فتراهم يقيمون المعارك على قضايا الغيوب التي استأثر الله بعلمها ، ونهى عن الخوض فيها ، ويشغلون الأمة بأكاذيب وضلالات كعلم الأولياء الغيب وامتلاكهم مفاتيحه الخمسة ، واطلاعهم على ما في اللوح المحفوظ ، وطيرانهم في الهواء وسيرهم فوق الماء ، ودخولهم إلى النار دون أن تنال منهم شيئا ، ورؤياهم النبي ﷺ يقظة لا مناما في الأسواق والشوارع ، وإغاثة السيد البدوي أتباعه في البحار والأنهار ، وإنقاذه إياهم أينما كانوا في الفيافي والقفار ، واستطالة عنق عبد العزيز الدباغ في فاس حتى صار أطول من كل طويل ، فطوى الله له السموات السبع والأرضين السبع ، حتى رأى الجنة والنار ، والملائكة والحور العين ، ورأى الرومية تُرضع طفلها في روما!!

وهذا الغثاء يردده أشياخ في المشرق و المغرب ، كالشعراني في «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» ، و أحمد برادة التيجاني في «جواهر المعاني» ، وأحمد بن مبارك في «الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز» والحبيب الجفري في خرافاته ، وعبد السلام ياسين في مؤلفاته ويقدمه مشروعا تنويريا لأبناء الحركة الإسلامية في القدوة والتربية لعلهم يرشدون .

يقول عبد السلام ياسين « ونورد هنا شهادة عبد من عباد الله ، أمي أو يكاد ، يصف لنا ببساطة وصدق ما حدث له حين اصطفاه الله وقربه إليه فأبصر بنور الله

وسمع بسمعه ، يقول مولانا عبد العزيز الدباغ : فلما بلغت باب الفتوح بفاس دخلتني قشعريرة ، ثم رعدة كثيرة ، ثم جعل لحمي يتنمل كثيرا ، فجعلت أمشي وأنا على ذلك و الحال يتزايد إلى أن بلغت قبر سيدي يحيى بن علال نفعنا الله به وهو في طريق سيدي علي بن حرازم ، فاشتد الحال ، فجعل صدري يضطرب اضطرابا عظيما حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي ، فقلت هذا هو الموت من غير شك ، ثم خرج شيء من ذاتي كأنه بخار الكسكاس ، ثم صارت ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل ، ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي ، فرأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها ، ورأيت جميع البحور ، ورأيت الأراضين السبع وكل ما فيهن من دواب ومخلوقات ، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنظر فيها ، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة ، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيون العين تبصر والرأس تبصر و الرجل تبصر وجميع أعضائي تبصر ، ثم استمر الأمر علي ساعة فانقطع» [(١)] .

قال عبد السلام ياسين : « وبقية كتاب الإبريز تتمة للفتح وإخبار عن الغيوب وعن أنوار الذات ومعرفة الله وصحبة رسوله ، ومن يقرأ من العامة العقلانية يتوهم أن بالرجل خبالا . . وحاشا معاذ الله أن تنفذ البصائر المعمية إلى أسرار الله ولو عرضها عليهم صادق مسكين» [(٢)] .

وهذا المنحى الخرافي الذي نحته منظروا الزوايا من شيوخ التصوف في تلاميذهم من أساتذة وطلاب الجامعات ، ودهاقنة الشيعة في الحوزات العلمية ونظروا له في مؤلفاتهم أضعف من انتشار الفكر العلمي ، وحد من تأثيره في حياة كثير من المسلمين .

---

(١) الإسلام بين الدعوة والدولة : ٣٥٨. الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز : ١٥ .

(٢) الإسلام بين الدعوة والدولة لعبد السلام ياسين : ٣٥٩.

فترى من يولع بأساطير المتصوفة ، ويته بها فرحا ، مثل ما ساقه الشعراني من : «أن الشيخ أبا يعزي أقام في بدايته خمس عشرة سنة في البر ، لا يأكل إلا من حبّ الشجر في البادية ، وكانت الأسود تأوي إليه والطير يعكف عليه ، وكان إذا قال للأسد : لا تسكني هنا ، تأخذ أشبالها وتخرج بأجمعها ، قال الشيخ أبو مدين : زرته مرة في الصحراء وحوله الأسد والوحوش والطير تشاوره على أحوالها . . فكان يقول لذلك الوحش : اذهب إلى مكان كذا وكذا ، فهناك قوتك ، ويقول للطير مثل ذلك فتنقاد لأمره . ثم قال : يا شعيب ، إن هذه الوحوش والطيور أحبت جِواري فتحملت ألم الجوع لأجلي» [(١)] .

ولو أن الأمر اقتصر على جهلة العوام لهان الخطب ، لكن هذا البلاء سرى اليوم فيمن يحللون تراكيب المواد في مختبرات الكيمياء ، ويتقنون حساب الأرقام في حل المعادلات الرياضية ، ومن يبحثون في عالم الفلك والفيزياء في قلب الجامعات ، ثم تراهم إذا خرجوا إلى عالم الخرافة والأساطير صاروا أغبى من الحمقى والمغفلين .

إذ ليس المقصود بالفكر العلمي أن يشتغل المرء بحل المعادلات الرياضية ، والبحث في عوالم الفيزياء والطب والصيدلة والكيمياء ، ويقف عند ذلك ، بل الواجب أن يترسم خطى المنهج العلمي في التفكير وتحليل الظواهر ، وفهم أسرار الكون و الحياة .

فإنك تجد أمة من المشتغلين بالعلوم البحتة من أكثر الناس تصديقا بالخرافة وولعا بالأساطير والأوهام ، لبعدهم عن معين الشريعة ، وسنن أهل العلم ، ولذلك تراهم أسرع الناس انتسابا إلى الطرق الصوفية ، وزوايا الخرافة ، وولعا بمخاريق المجاذيب والأميين من المشايخ .

فلا ترى أثرا للفكر العلمي في حياة هؤلاء ، بل تجد الواحد منهم يعيش بعقل

---

(١) طبقات الصوفية للشعراني : ١ / ١٣٦.

العـالم في المختبر وقاعـة الجراحـة مـع المعـادلات الرياضـية والكميائيـة ، والآلات والأجهزة الطبية ، فإذا خرج ترك عقله مع معطفه الأبيض حين يخلعه ، وانقلب إلى تدينه المغشوش ليصدق «أن فلانـا طـار في الهـواء ، أو مـشى فـوق المـاء ، وأن شـيخه يخترق الجدران ويسافر في الآفاق ، وأنه يُحضر لك فاكهة الصيف في فصل الـشتاء» ، ونحو ذلك من حكايات أهل الدجل .

يقول الشعراني : في ترجمة يوسف العجمـي الكـوراني : «وكـان ﵁ إذا خـرج مـن الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد فكل من وقع نظره عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً ، ولقد وقع بصره يوماً عـلى كلـب فانقـادت إليـه جميـع الكـلاب ، إن وقـف وقفوا وإن مشى مـشوا» . إلى أن قـال : «ووقـع لـه مـرة أخـرى أنـه خـرج مـن خلـوة الأربعين فوقع بصره على كلب فانقادت إليه جميع الكلاب ، وصـار النـاس يهرعـون إليه « أي إلى الكلب» في قضاء حوائجهم ، فلـما مـرض ذلـك الكلـب اجتمـع حولـه الكلاب يبكون ويظهرون الحزن عليه ، فلـما مـات أظهـروا البكـاء والعويـل ، وألهـم الله تعالى بعض الناس فدفنوه فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتو» [(١)] .

قال الشعراني : «فهذه نظرة إلى كلـب فعلـت مـا فعلـت ، فكيـف لـو وقعـت عـلى إنسان؟!» [(٢)] .

وبـذلك كـادت سـنن الله في الكـون أن تنقلـب عنـد هـؤلاء إلى لعبـة في أيـدي الدجالين ، لهم أن يحركوهـا أو يعطلوهـا متـى شـاءوا ، وكـأن الأحـداث والمـسببات ليست رهينة بأسبابها إلا في مختبرات التحليل وقاعات العلوم بالجامعات ، وأوراش الصناعة والفلاحة ، حتى إذا انقلب الناس إلى حياتهم العادية سـلموا زمـام عقـولهم للخرافة!!

---

(١) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، المسمى طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ٦٦ .

(٢) طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ٦٦ .

مما يدل أن لدى هؤلاء الخرافيين انفصاما في الفكر واختلالا في موازين العقل ، ولولا علوم الغرب لعادت حياة القوم إلى مرحلة التوحش والسحر والشعوذة ، فيليق بهم أن يعشوا مع الجن والعفاريت ، ولا يأنسوا من التراث إلا بخرافات بهلول المجنون ، وميمونة السوداء ، وأبي يزيد البسطامي والحلاج وأبي مدين والشعراني والدباغ ، ليطيروا في الهواء ، ويسيروا فوق الماء ، ويدخلوا إلى النار فلا يحترقون ، ويرقصوا مع الراقصين ، ويتغنوا بكرامات الأئمة المعصومين ، حتى يسكروا بخمرة الخبال الصوفي ، فتسقط عنهم الشعائر ، في زمن تغزو فيه أمريكا وإسرائيل بخيلها ورجلها بلاد المسلمين ، وتهدد بعتادها المتطور في عالم الحديد والنار أمن الأمة ووجودها في الأرض .

في حين ترى الكتاب و المثقفين من منظري الزوايا الصوفية كالقادرية والنقشبندية والختمية والتيجانية ، والأحمدية والملاماتية وأضرابهم ، يفاخرون من أذلوهم باستعمار بلادهم بالدعاوى العريضة التي شاعت في سير مشايخ الدجل .

أمثال أحمد بن علي البدوي ت ٦٥٧هـ الذي زعم أرباب الخرافة أنه « صعد إلى سطح غرفته ، وأقام فوق السطح نحو اثني عشرة سنة ، وكان يمكث أربعين يوما فأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وعاش لايظله سقف و لا يحجبه شيء عن السماء فكان الناس يلقبونه بأبي اللثامين السطوحي ، و إذا عرض له الحال يصيح صياحا متصلا ، وادعو أنه كان يضع اللثامين على وجهه ليستر بهما الأنوار الربانية ، والتجليات الإلهية التى كانت تنطبع على محياه» [(١)] .

ولقب ببحر العلوم ؛ لأنه كان يقول : «وعزة ربي سواقي تدور على البحر المحيط ،

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٤٥ وطبقات الصوفية للشعراني ١/ ١٥٨ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٥٢.

لو نفذ ماء سواقي الدنيا ما نفذ ماء سواقي» [١] .

وذكر المؤرخ الجبرتي أنه بلغ من جهل العوام اعتقادهم أنه تشفع عند الله مع بعض الأولياء فأخر عنهم قيام الساعة إلى حين ، قال الجبرتي : « في آخر سنة ١١٤٧هـ أُشيع في الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة ، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضاً ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالاً وصاروا يغتسلون في البحر ، ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم ، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلي ، واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه في نفوسهم . . وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين . فلم يقع شيء ، فانتقلوا يقولون فلان العالم قال : إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم» [٢] .

وقال الشعراني : «ووقع ابن اللبان في حق سيدي أحمد ﷺ فسُلب القرآن ، والعلم ، والإيمان ، فلم يزل يستغيث بالأولياء فلم يقدر أحد أن يدخل في أمره فدلوه على سيدي ياقوت العرشي فمضى إلى سيدي أحمد ﷺ وكلمه في القبر ، وأجابه» [٣] .

وزعموا أنه كان يُنقذ المستغيثين في البحار ، ويمد يديه من فوق سطح بيته فيستنقذ الأسرى من أيدي النصارى ، و قد كان الأولى بهذا القطب الصوفي الرافضي المتصرف في العوالم والأكوان وصاحب الخوارق والأحوال !! أن يوقف زحف التتار والمغول الذين استباحوا البلاد وأذاقوا المسلمين صنوف النكال ، ويفتح ثغور الروم ، أوينقذ أمصار المسلمين من أيدي الصليبيين ، لكنها دعاوى

(١) طبقات الصوفية للشعراني :١/ ١٥٨.

(٢) عجائب الآثار للجبرتي : ١/ ١٠٨ .

(٣) طبقات الصوفية للشعراني :١ / ١٨٣.

الخبال تروج على العميان في سوق الجهالة !!

وحقيقة الرجل أنه كان داعية شيعيا علويا استغل التصوف ستارا لاسترجاع حكم الروافض الذى انقرض بزوال الدولة العبيدية فى مصر على يد صلاح الدين الأيوبى ، وحين ضعفت الدولة الأيوبية انتهز الشيعة الفرصة فأعادوا دعوتهم المتسترة بالتصوف لإرجاع ذلك الملك الزائل ، فلم تُسعفهم صولة دولة المماليك فظلوا رموزا للدجل والشعوذة .

ثم إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي ت ٦٧٦ هـ شيخ الطائفة البرهامية وصاحب الدعاوى العريضة ومنها قوله : «أنا في السماء شاهدت ربي ، وأنا على الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار أغلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الأزل ، وإن الله ﷻ خلقني من نور رسول الله وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي» (١) .

وقد كان الدسوقي يتبجح بهذا الدعاوى الكاذبة في زمن عاقب الله فيه المسلمين بما سلف لهم من المعاصي بتسلط التتار والمغول ، واجتياحه للبلاد الإسلامية ، وانهدام ركن الخلافة ، فكيف فتحت أبواب الجنان ، وغلقت أبواب النيران ، في عصر مني فيه المسلمون بهذه المصائب والهزائم؟!! وقد كان هولاكو وجينكزخان وأتباعهم يعيثون في بلادهم فسادا ، ويسومون الأمة سوء العذاب .

ثم أبو العباس أحمد بن محمد الملثم زعموا « أنه عاش أربعمائة سنة ، وأنه صلى خلف الإمام الشافعي ت ٢٠٤ يوم كان جامع مصر سوقا للدواب ، و أنه قد أُعطى التبدل فى الصورة بحيث يظهر بغير صورته ، فى أماكن عدة على سبيل البدل ، وقد ألف السيوطى في ذلك رسالة سماها «المنجلي في تطور الولي» وذكر فيها « أن ذلك يكون من باب تعدد الصور بالتمثل والتشكل ، ومنها ما يكون من باب طي المسافة ،

---

(١) طبقات الصوفية : ١/ ١٨١، و المجددون في الإسلام لعبد المتعالي الصعيدي : ٢٤٧ – ٢٤٨.

وزوي الأرض بحيث ينتقل الولي من مكان إلى آخر فى لحظة من غير أن تتعدد صورته ، فيظن من رآه فيهما أنه كان فى صور متعددة لسرعة انتقاله من مكان إلى آخر مع بعد المسافة ، وليس كذلك بل هو من طي الله الأرضَ لأوليائه ورفع الحجب المانعة عنهم» (١) .

حتى خرج هؤلاء إلى الاعتقاد في تناسخ الأرواح وتبدل أجساد الأولياء كما ذكر الشعراني عن الشيخ «حسين أبي علي» أنه : «كان من كُمَّل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطورات تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديا ، ثم تدخل فتجده سبعاً ، ثم تدخل فتجده فيلاً ، ثم تدخل فتجده صبياً وهكذا ، ومكث أربعين سنة في خلوة مسدودة بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء وكان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة» (٢) .

ومما شاع عند الرفاعية من كرامات الشيخ أحمد الرفاعي « أن الله ناداه : قم يا أحمد وزر بيت الله الحرام وزر النبي ﷺ ، فقال الرفاعي لربه : سمعا وطاعة ، فسافر ومعه جم غفير إلى مكة ثم المدينة ووقف عند القبر وقال : السلام عليك يا جدي ، فقال له النبي ﷺ : وعليك السلام يا ولدي . فتواجد الرفاعي وقال :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فانشق التابوت ومد النبيﷺ يده إلى الرفاعي ليقبلها أمام جمع كبير من الناس يزيدون على التسعين ألفا وكان من بينهم عبد القادر الجيلاني وعدي بن مسافر وحيوة بن قيس الحراني» (٣) .

---

(١) طبقات الأولياء لابن الملقن : ٦٩ ، طبقات الصوفى للشعرانى١ / ١٥٣ .

(٢) طبقات الصوفية للشعراني : ٢/ ٨٣ .

(٣) تنوير الأبصار في مناقب آل النبي المختار : ٦ . قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر :١٥ .

واعتبروها حادثة متواترة يكفر منكرها ويصير خارجا من ملة الإسلام كما صرح بذلك أبو الهدى الصيادي قائلا : « فخروج يد النبي ﷺ لسيدي أحمد بن الرفاعي ممكن ولا يشك فيه إلا ذو زيغ وضلالة ، أو منافق طبع الله على قلبه ، وإنكارها يؤدي إلى سوء الخاتمة» [1] .

وهي أسطورة تناقلها هؤلاء المغفلون في البلاد الإسلامية وطاروا بها كل مطار ، مع أن ثقات المؤرخين الذين ترجموا للشيخ أحمد الرفاعي كابن خلكان والذهبي وابن كثير ، لم ينقلوا شيئا من هذا الدجل .

وتجد هذا الغثاء يُنشر اليوم باسم التربية وإحياء التراث الصوفي ، في مواقع زوايا الصوفية ، حيث يرى هؤلاء أن إحياء هذه البلايا ، وبعث هذه الأفكار الميتة سبيل انتصار الأمة وتقدم المسلمين .

وعند التحقيق وتقليب النظر في تاريخ الحضارة الإسلامية ألفيناهم أمة من الفاشلين ، وخلائق من العاطلين امتلأت بهم الربط والزوايا والخوانق والتكايا ، قعدوا في مناخ البطالة ، وظلوا يتسولون المعارف الأرضية ممن غلبوهم على الأرض ، وتركوهم أذل من السراط .

بل لا يخفى أن كثيرا من هؤلاء القاعدين على بساط الجهل ، والولع بالأساطير قد وقعوا وارتموا من حيث يشعرون أو لا يشعرون في خدمة مشاريع الدوائر الصليبية في تخريب عقول المسلمين وديارهم ، وتخلفهم عن الركب الحضاري للأمم ، إذ لا تطمع مؤسسات المكر الصليبي والصهيوني أن تدس أخطر من هذا الفكر المغشوش في تراث الأمة .

٧. اختلال سلم الأولويات في فقه الخلاف والمواجهة :

ابتليت المعرفة الإسلامية بقوم من أهل الترف والبطالة ، اختلت لديهم موازين

(١) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر ، أبو الهدى الصيادي : ١٠٨.

الأولويات في التعامل مع التراث والاستفادة منه فيما ينفع الأمة ، فلا تراهم يهتمون بشيء يخدم قضايا الأمة الكبرى في الفكر والعقيدة وسنن الرقي وبناء الحضارة ، بل تجد لديهم نهما شديدا وولعا عجيبا بالنظر في الجزئيات والخلافيات ، والتنقير عن تلاد المسائل الفرعيات التي أثارت فتنا ومحنا بين المسلمين ، كلما انتهوا من مسألة نظروا في أخرى .

وقد يستمر الخلاف بينهم في مسألة شهورا وأعواما ، يجندون لها ماوسعهم من جهد وقوة ، ويضيعون فيها نفائس الأوقات في معارك الجدل مع الخصوم ، فلا يدعون مسألة خلافية ، أو معركة جدلية ، تثير الفتن بين العباد إلا ولجوها ، وشمروا فيها للنزال والانتصار ، وفرحوا بخذلان المخالف ، وانتهضوا عليه بالجلبة والصياح ، وأحيانا بالشتائم والسخائم ، باسم الجهاد ونصرة الدين .

قال الشيخ محمد الغزالي ~ : « لقد سألت نفسي هل المولعون بقضايا الخلاف صغراها وكبراها ، والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم وأوقاتهم للانتصار فيها . . . هل هم مخلصون للقضايا المتفق عليها ، لماذا ننسى القواعد التي تجمعنا ونهش للدروب التي نتفرق فيها ، الحق أن هذا الاهتمام بالأمور الخلافية لون من الطفولة الفجة ، والزيغ الفار بأهله من ميدان الحق ، لأنه كثير التكاليف ، إلى ميدان آخر لا مشقة فيه ، ولاتزحمه واجبات ثقال» [١] .

وقد حصل ذلك لدى قوم قليلي الفقه كثيري الحركة ، حيث ترى اختلالا لديهم في فقه سلم الأولويات ، واشتغالا بقضايا ميتة يهدرون فيها الطاقات ، ويضيعون نفائس الأوقات في مواجهات فاشلة ، ومعارك خاسرة ضد العوام ، بسل فصال النضال ، ونصب المجانيق ، والضرب بدبوز من حديد ، وشهر الصارم البتار في وجه المبتدعة الأشرار ، الذين يخالفون في مسائل فروعية اتسعت لها الأنظار ، مع

---

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل : ٦.

ترك ما هو أولى بالمواجهة منها من بلايا الفكر الوافد .

وأكثرها مسائل فرغ منها الأئمة ولم يبق منها في القوس منزعا ، قد تجلى الخلاف فيها كالشمس في ضحاها ، ولم يبلغ أحد مدارك سد الخلاف فيها ، فتجد مما يؤلف اليوم رسائل هي من باب الاجترار ، وضياع الأعمار والأموال فيما قتل بحثا نحو «القذادة في تحقيق مسألة الإستعاذة » في مسألة الجهر والإسرار بالاستعاذة ، و«المفيدة لكل مستفيد ومستفيدة » في إثبات سنية القبض بعد الركوع ، و«الجوهرة الغالية في حكم الجماعة الثانية» ، ونحوها .

في حين جلبت دوائر المكر والإلحاد على المعرفة الإسلامية عقيدة وشريعة ومنهجا بخيلها ورجلها ، وصارت تنفث السم الزعاف ، وتنشر الإلحاد بين شباب الإسلام متجهمة حانقة معطلة لمنارات الخير في ميدان العلم والفكر ، مزرية بأعلام الأمة كالبخاري ومسلم ومالك والقرطبي وغيرهم لتسقطهم من ديوان الرجال ، فأولى أن تجتمع عليها الجيوش الإسلامية وترسل عليها الصواعق المرسلة ، والشهب العلمية لتزيل صفراءها وخضراءها النابتة فوق دمن الحداثة والعلمانية البالية .

وإذا كان مكر الصليبيين والعلمانيين أشد من ضلال فرق ماتت في الفكر الإسلامي ، فإن كثيرا من الغلمان الطائشين يرون أن من أوليات المعركة الفكرية والعقدية اليوم أن نعلن الحرب على الجهمية والمعطلة ، مع أن جهمية ومعطلة عصرنا اليوم أشد ضلالا من تلك الفرق التي خبت نارها ، وانطفأ شررها ، وإنما هي أشباح نقاتلها في غير معركة ، وهياكل ميتة نخاصمها في غير ميدان .

فإن دوائر الفكر الصهيوني والصليبي تستغل اليوم ضعاف الفكر والإيمان من المسلمين ، وتستقدمهم إلى جامعات الغرب تحت إشراف طلائع المستشرقين ، كما هو الحال في هارفرد بأمريكا ، والسربون بفرنسا ، وتمكنهم من كافة الوسائل

للبحث والكتابة في أفكار مسمومة بالية في التراث الإسلامي ، ومحاولة إحيائها ، وتقديمها للأجيال المقبلة حتى تمقت هذا الدين وتضجر من حضارة المسلمين .

وإنه ليشتد بالمرء الأسى وهو يلمح خلائق من حملة العلم يهدرون جهودهم وأوقاتهم في دروب من الخلاف الفقهي قد انتهى منه علماء الإسلام ، أوجدل كلامي مضى بمضي زمانه ، وأوسعه الأئمة بحثا وردا على المخالفين ، فيشتغلون بذلك عن معضلات كان الأولى أن تبذل فيها الجهود وتصرف لها نفائس الأوقات .

ولربما تجد المشتغل بهذه الخلافات أميا عاطلا لايملك قوت يومه ، وقد ضيع حقوق الأمة عليه ، وهذا من انقلاب سلم الأولويات في عقول أبناء المسلمين ، وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول ، بله أن يحقق بعض فروض الكفاية في المجتمع .

وأنت إذا أنعمت النظر فيما يقتتلون حوله من المسائل وجدت أكثرها من العلم الذي لاينفع والجهل الذي لايضر ، من مثل إرجاء الفقهاء ، وهل كان أبو حنيفة منهم ؟ ونوادر ابن تيمية في القول بفناء النار ، وحوادث لا أول لها ، وتتبع سقطات ابن حزم ، والنظر فيما يخرج النووي وابن حجر من دائرة أهل السنة لكونهما تأولا بعض الصفات ، ونحو ذلك مما لايعني المرء في دينه ، ولم يُكلف البحث والنظر فيه .

وفي أحسن الأحوال يشغلون أوقاتهم ويستميتون لحمل العباد على رأي واحد في مسائل الخلاف المعتبر الذي تواردت فيه الأدلة واتسعت له الأنظار ؛ كالنزول على الأيدي أوعلى الركب في السجود ، وقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وصلاة الجماعة الثانية في المسجد ، والسدل أو القبض بعد الركوع ، ورؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج ، ونحوها من المسائل التي لا يرتفع فيها الخلاف بين الأئمة .

كل هذا يقع في زمن بلغت فيه الأمة دركا من الهوان لم يُعهد من قبل ، حيث تداعت أمم الصهاينة والصليبيين على ديار الإسلام نهبا وسلبا ، وتقتيلا وتخريبا ،

واشتدت هجمة العلمانيين ودعاة الحداثة من الداخل تغير على مكارم الشريعة ، وتهدم حرمات الدين ، وتطعن في السنة ونبي الأمة ، وتلعن الصحابة وأعلام الأئمة ، وأمة الغافلين منا ليسوا في ورد من ذلك ولا صدر ، يُغار عليهم ولا يُغيرون ، بل لا يرون شيئا من ذلك يستحق الاهتمام مع طغيان الجهل بتحقيق وجه الخلاف في هذه المسائل بين العوام .

ومع ظهور نسائم الربيع العربي الإسلامي في تونس ومصر وليبيا اتجه هؤلاء إلى إعلان الحرب على المصلحين ، والرد على الثائرين ، باسم مواجهة الخوارج ، وأهل الأهواء المعارضين لولاة أمر المسلمين .

حيث ألف الشيخ «نعمان الوتر» رسالة سماها «نسف شبهات دعاة المظاهرات والاعتصامات» قال فيها : «وهذه الأعمال المنكرة وافدة علينامن أعداء الإسلام ، ليحدثوا بها أنواعا جديدة من الفرقة والانقسام بين أبناء المسلمين، . . إذ هي صورة من صور الخروج ، وبذرة خبيثة من بذورالفوضى العامة التي ربما أتت على الأخضر واليابس عياذا بالله» [1] .

ومن هؤلاء الغلاة في مواجهة المستضعفين مع مهادنة حكام الجور «الشيخ خالد أحمد العلاونة الذي هاجم ثوار التحرير في مصر ووصفهم « بأنهم خوارج وكفار ، وقال : إن حذاء حسني مبارك أطهر من لحى الإخوان المسلمين التي على وجوههم ، ومن ناصرهم وأيّدهم» [2] .

وهذا من عظيم الجور والتطاول على المسلمين ، مما يؤكد أن هؤلاء الغلاة «تراهم مرجئة مع الحكام ، ثم ينقلبون خوارج مع العلماء» ، يكيلون المدح لأصحاب الصولجان ، وُيمعِنون في الشتم والقدح في المستضعفين الذين لا ناصر

(١) نسف شبهات دعاة المظاهرات والاعتصامات والإضرابات لنعمان الوتر : ص ٢ .

(٢) صحيفة «السبيل» الأردنية الأحد ١٧ ابريل ٢٠١١ .

لهم إلا الله .

ومن نفس المدرسة الناقمة على شباب الثورة «أبو عاصم المصري» الذي شبه مظاهرات الثوار بخروج مشركي هوازن يوم حنين بنسائهم وصبيانهم ، حيث وجه رسالة لثوار مصر عبر موقع منتديات البيضاء التابع لعلي رضا أتى فيها بالعجر والبجر ، وركب مطايا الزور والتحريف ، ورمي المتظاهرين بما لا يستسيغه عاقل [١] .

وقد صار ديدن القوم إثارة الفتن والوقيعة بين شباب الأمة وعلمائها المجاهدين ، في حين لا نكاد نسمع لأحدهم جعجعة ولا نرى طحينا في نصرة قضايا المسلمين المستضعفين ، والدفاع عن حرمات الأمة ضد الطغاة والغزاة المستعمرين .

فالاشتغال بهذه المواجهات الخاسرة ، وإهدار الجهود في خلافات بالية لحمل الناس على رأي واحد تعب ليس وراءه أرب ، بل جناية على الإسلام وأهله لما يفضي إليه ذلك من بث العداوة بين المسلمين ، وإشغالهم بمسائل لا يرتفع فيها الخلاف عن الاهتمام بالقضايا الكبرى التي تعاني منها الأمة ، كتقويم العقيدة والأخلاق ، والتورع عن المحارم والشبهات ، والدفاع عن حرمات الإسلام في البلاد ، والدعوة إلى تحيكم الشريعة ، وإعداد العدة لمواجهة علل الكفر والفقر والمرض والجهل ، وغيرها من الأوبئة التي تفتك بالخلق ، وتخرب ديار المسلمين .

٨ـ تعالم النكرات وخطره على التراث الإسلامي :

من شر الآفات و الغوائل على التراث الإسلامي دخول الأحداث وصغار المتعالمين في علومه ، وأخذهم وردهم فيها ، وهم المجاهيل الذين لم يعرفوا برسوخ القدم في طلب العلم ، وإن كانوا أشياخا وأشجارا في الوقار .

قال ابن حزم ~ : « لا آفة على العلوم وأهلها ، أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ، ويظنون أنهم يعلمون ، ويفسدون ويقدرون أنهم

(١) منتديات البيضاء العلمية :www.albaidha.net/vb/showthread.php?t=٣٠٨٠١.

يصلحون »[١] .

وقد ابتليت المعرفة الإسلامية بخلق ظهروا في حلائب العلم ، تصدروا للنظر في المعارف وعلوم التراث قبل النضج والاكتمال ، ومن تصدر للناس قبل أوانه تعرض لهوانه .

وهؤلاء قوم ناموا عن طلب العلم زمنا ، ولم يدركوا فيه وردا ولا صدرا ، ثم قاموا كطحالب الغدران الطافية على الماء ، وركبوا مطايا الخير للشر ، فجلبوا على المعرفة الإسلامية عارا ، وحملوها أوزارا . وقد أثر من كلام علي ﷺ : «العلم نقطة كثرها الجاهلون »[٢] .

وأثر من كلام الغزالي : «لو سكت من لايعلم لقل الخلاف»[٣] ، وقديما قيل : «إن من البلية تشيخ الصحفية» .

وقال الشافعي : « فالواجب على العالمين ألَّا يقولوا إلا من حيث علموا ، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به ، وأقرب من السلامة له إن شاء الله »[٤] .

ورأى الشاطبي ـ رحمه الله ـ أن ما حصل من شذوذ المتأخرين وانحرافهم عن مذاهب السلف الماضين إنما كان من هذه الجهة حيث قال : «والثاني ألَّا يكون من أهل الاجتهاد وإنما أدخل نفسه فيه غلطا أو مغالطة إذ لم يشهد له بالاستحقاق أهل الرتبة ولا رأوه أهلا للدخول معهم فهذا مذموم وقلما تقع المخالفة لعمل المتقدمين

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم : ١ / ٣٤٥.

(٢) كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ٢ / ٦٧ .

(٣) وقد صنف الشيخ عبد الغني النابلسي رسالة سماها "زيادة البسطة في بيان العلم نقطة" وشرحها الشيخ أحمد بن محي الدين الإغريسي ت ١٣٣٠هـ. انظر : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمراد : ٣٩٨.

(٤) الرسالة للشافعي : ٤١.

إلا من أهل هذا القسم »[١] .

فالمتعالم فج الدعوى لخلوه من الحقائق ، ولو تحقق لأغنته الحقائق عن الدعاوى ، مع ضعف ظاهر ، وإنما كان السلف على التواضع وهضم النفس وترك الادعاء . قال القاضي عبد الوهاب المالكي :

متى تصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا

ومن يثني الأصاغر من مراد ... وقد جلس الأكابر في الزوايا

وإن ترفع الوضعاء يوما ... على الرفعاء من إحدى البلايا

إذا استوت الأسافل والأعالي ... فقد طابت منادمة المنايا

وقد أخرج الخطيب عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم ، وأمنائهم وعلمائهم ، فإذا أخذوه عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا»[٢] .

وقد كثر المتعالمون في زماننا من أصحاب الغارة على التراث من دعاة الحداثة ، وحشوية الأمة من الجهلة المتحمسين ، حتى فاقوا عدد باعة البقول والشحاذين في الأسواق ، وتداعت أرسالهم كالذباب مشوشة على المعرفة الإسلامية بين العباد ، فتعنت حماية التراث من وساوسهم وتخليطهم ، إذ الحجر على الجهلة الأدعياء لاستصلاح الأديان ، أولى من الحجر على المفاليس لاستصلاح الأموال والأبدان .

وقد اشتكى الذهبي ~ من مثل هذا النوع في زمانه وهم في زماننا سماء ، وأهل بصر بين العميان ، حيث قال في ترجمة هدبة بن خالد ت ٢٣٥هـ « فكيف بالماضين لو رؤونا اليوم نسمع من أي صحيفة مصحفة ، على أجهل شيخ له إجازة ، ونروي من نسخة أخرى بينهما من الاختلاف والغلط ألوانا ، ففاضلنا يصحح ما تيسر من

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي : ٣/ ٧٥.

(٢) نصيحة أهل الحديث للخطيب البغدادي ، حديث رقم ٨ .

حفظه ، وطالبنا يتشاغل بكتابة أسماء الأطفال ، وعالمنا ينسخ ، وشيخنا ينام ، وطائفة من الشبيبة في واد آخر من المشاكلة والمحادثة لقد اشتفى بنا كل مبتدع ، ومجنا كل مؤمن ، أ فهؤلاء هم الذين يحفظون على الأمة دينها ؟ كلا والله ، فرحم الله هدبة وأين مثل هدبة ، نعم ما هو في الحفظ كشعبة» (١) .

وقد صنف العلماء قديما في هتك أستار المتعالمين وكشف عوارهم رسائل ومؤلفات منها «تنبيه العلماء على تمويه المتشبهين بالعلماء» لعلي بن زيد البيهقي ٥٦٥هـ ، و«تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء» للزياني المغربي ١٢٤٩هـ ، وألف عبد الكريم بن فكون الجزائري ت ١٠٧٣هـ ~ «منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية» (٢) . و ألف بكر أبوزيد كتابا نفيسا في نقض هذه الآفة الناشئة بين المسلمين ، ومما قال فيه : « ولم يبق منهم من يحسن الجمع بين كلمتين إلا استطال على منازل العلماء ، فهؤلاء المنازلون في ساحة العلم ، ليس لهم من عدة فيه سوى القلم والدواة هم الصحفية المتعالمون شخصية مؤذية ، تتابعت الشكوى منهم على مدى الإعصار ، وتوالي النذر سلفا وخلفا :

شعوذة تخطر في حجلين وفتنة تمشي على رجلين

إنهم زيادة في أنصاب أهل العلم كواو عمرو أونون الإلحاق ، فهذا القطيع حقا ، هم غول العلم ، بل دودة لزجة ، متلبدة أسرابها في سماء العلم ، قاصرة عن سمو أهله ، وامتداد ظله ، معثرة دواليب حركته ، حتى ينطوي الحق ، ويمتد ظل الباطل وضلاله ، فما هو إلا كفجر كاذب ، وسهم كاب حسير» (٣) .

أسباب تشيخ الصحيفة :

وقد وُجدت أسباب حملت هؤلاء المتطفلين على الادعاء ، وأحدثت نتوءا واعوجاجا في مناهج المعرفة وقراءة التراث ، وفتحت أرسالا من أسراب التعالم في

(١) سير أعلام النبلاء :١١/ ٩٩.

(٢) طبع بدار الغرب الإسلامي بيروت : ١٤٠٨ هـ . بتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله.

(٣) التعالم وأثره على الفكر والكتاب : ٨- ٩.

هذا العصر منها :

١- قعود الراسخين ، وإحجام المتأهلين عن التصدر الانتصاب لدعوة الخلق وإقامة الحجة ، حتى رأينا دنانا فارغة تحدث جلبة وضجيجا بين الناس ، وأوعية من أهل العلم وقمم الفكر أحجمت عن النزال أمام نفاق سوق الجهال ، وتعالم الأغمار ، وقد كان من دعاء عمر ﷺ : «اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة » ، أو كما قال الشاعر :

ملأى السنابل تنحني تواضعا والفارغات رؤوسهن شوامخ

وقال أبو العلاء المعري :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظُن أني جاهل

فوا عجبا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

٢- تفشي داء العجب والغرور بين بعض حملة العلم المجترئين على العظائم ، لضمور وازع الإيمان والحياء ، مما جرأهم على اقتحام خطة السوء الفاجرة وهي« القول على الله بغير علم» .

٣- انقطاع صلة الناس بكتب السلف ، واقتصار طلاب العلم على الطحالب والقشور في سوق المعارف ، وعكوفهم على ثمالة ونزر قليل في حدائق العلوم لا تؤهلهم لشيء ، فنشأت نابتة من المقتصرين على نتف وسطور ، يستكملون شرائط العلم بالدعاوى العريضة ، فيصير الأعمش منهم في بلاد العمى سلطانا .

٤- ضعف ملكة العربية بين المثقفين واستشراء لغة عامية هجينة نشرها أعاجم أغتام لم يرضعوا ألبان العربية ، حيث ثقلت ألفاظها على ألسنتهم ، فعكفوا على ألفاظ سوقية ، وعبارات فجة مبتذلة صارت هي البضاعة النافقة في سوق الجهالة .

١ـ التعالم وأثره في تحريف نصوص الشريعة :

تولج هذا الباب خلق من النكرات الفاشلين الذين أعياهم الجهل ، وطالت

عليهم السنون في ظل البطالة وخمول الذكر ، فتعلقوا بتحريف نصوص الكتاب والسنة ، والتطاول في أعراض علماء الأمة ليرتفعوا ، ويشتهروا شهرة الشر ، كما قيل : «إن كنت خاملا فتعلق بعظيم» ويدخلوا التاريخ من بابه الأسود،كما قال الشاعر :

أصبح السافل منا عالياً — وهوى أهل المعالي والشرف

يسفل الناس ويعلو معشر — قارفوا الإقراف من كل طرف

ولعمري لو تأملناهم — ما علوا لكن طفوا مثل الجيف

قال العلامة أحمد محمد شاكر ~ : «أما في عصرنا ، فقد نابت نوائب ، ونبتت نوابت ، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم ، وممن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم ، وجهلوا القرآن فلم يقرؤه ، ولا يكادون يسمعونه إلا قليلا ، وجهلوا السنة ، بل كانوا من أعدائها ، وممن سخروا من علم علماء الإسلام ، وسفهت أحلامهم ، ومردت ألسنتهم على قولة السوء في سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلا ، هؤلاء وأشباههم وأمثالهم ، اجترؤا على العبث بالقرآن ، واللعب بالسنة ، فعرضوا لتفسير القرآن ، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل ، يفتون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث ، وينزعون من قلوبهم الإيمان ، لا أقول : إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم ، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلاً ، بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام» [1] .

فما تشاء في هذا العصر القليل الرشاد ، الكثير الفساد ، أن تسمع بمفسر جهول كذاب ، لا يدري ما السنة ولا ما الكتاب ، يلوي أعناق النصوص ليستدل بها على سخافات جهله ، ويشيعها بين العوام ، إلا سمعت ورأيت ما يندى له الجبين!!

---

(١) عمدة التفاسير لأحمد محمد شاكر : ١ / ٤٦.

فتجد من يستدل لوجوب السياحة في الأرض للدعوة بقوله تعالى : ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة:٢] ، مع أنها وردت في سياق النكاية بالمشركين ، ومن يرى الحج فرضا على الرجال دون النساء بقوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ [الحج:٢٧] ، ويرى وجوب إطعام القطط والكلاب من لحم الأضحية يوم العيد لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ [الحج:٣٦] .

ومن التعالم في السنة تطاول أقوام مفلسين في صناعة الحديث على كتب السنة تحريفا وإغارتهم على السنن باسم النقد ، وهم لا يحفظون منها حرفا ، ولم يروحوا للدراية فيها عرفا ، تسارعوا إلى الحكم على السنن تصحيحا وتضعيفا ، وإثباتا ونفيا بلا إحاطة ، وتوهيما للراسخين فيها بلا مكنة ، فكانوا كلابس ثوبي زور .

وذلك شأن من يقتحم قُحما ليس من رجالها ، ويلبس ثياب الكبراء متعثرا بأذيالها ، شغلوا العلماء بسخفهم وشغبهم على التراث ، واستنزفوا جهودهم في التعقيب عليهم ، ولا غرابة فإن البغاث بأرضنا تستنسر ، تراهم يتكنون بألقاب العلماء ، كالمحدث ، والأثري ، وهي مراتب علمية لا تكون إلا لمن تمرس بالصناعة برهة من الزمن .

وقد بين السخاوي رسم المحدث الذي يستحق وظائف المدارس الحديثية ، ثم قال «وأما إذا كان على رأسه طيلسان ، وفي رجليه نبلان ، وصحب أميرا من أمراء الزمان ، أومن تحلى بلؤلؤ ومرجان ، أو بثياب ذات ألوان ، فحصل تدريس حديث بالإفك والبهتان ، وجعل نفسه لعبة للصبيان ، لا يفهم مايقرأ عليه من جزء ولاديوان ، فهذا لا يطلق عليه إسم محدث ، بل ولا إنسان ، وإنه مع الجهالة آكل